15

رسائل
فى التّربية والتّعليم والأدب
من والدٍ إلى ولدِه
كانَ يبعثُ بها إلى ولدِه مِن وَقتٍ لآخر

أحمد حافظ عوض

صاحب جريدة كوكب الشرق وعضو مجلس النواب

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولي
١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakafa-alDinaya@hotmail.com

رقم الايداع	٢٠٠٤/١١٣٢٠
I.S.B.N الترقيم الدولي	977- 341 - 153 - 2

تقديم

لما صحت العزيمة على نشر هذه الرسائل فى كتاب، لم أكن أتصور، فى الغاية القصوى من آمالى وأحلامى، أن ستقابل بمثل ما قوبلت به من إعجاب الكاتبين، وتقدير المفكرين، وأقسم أننى ترددت كثيراً فى الإصغاء إلى من أشار بنشرها، وحث على العناية بأمرها، حتى بلغ بى التردد فى شأنها، وضعف الثقة بها، أننى لم أكتب لها مقدمة، ولم أحمّل نفسى تبعة عرضها على الجمهور، وتركت لولدى التقدم بها إلى الناس، فقال فى الكلمة التى قدم بها هذه الرسائل:

«هذه مجموعة رسائل كان يبعث بها إلىّ والدى من مصر، وأنا طالب فى الكلية الأمريكية فى بيروت، وقد حرصت عليها طول هذه السنين، حرص البخيل على درهمه.

وما كنت أظن أن هذه الرسائل ستنشر فى كتاب، كما أن والدى لم يكن يفكر، وهو يبعث بها إلىّ، من القلب إلى القلب، أنها ستعرض على الأنظار، وتقدم للناس فى مختلف البقاع والأمصار. فأنا بكل أدب ووجل، أقدم هذه الرسائل الخاصة إلى أهل الفضل وعشاق الأدب، وطلاب الحقيقة أينما وجدت».

فلما طبعت الرسائل ونشرت، ورأيت من إقبال المفكرين، وتقريظ المقرظين ما رأيت، أخذت أعيد النظر فيها كقارئ غريب عنها، لأفهم معنى ذلك الرضاء العام الذى قوبلت به. فكنت أقف عند بعض الرسائل راضيا، وعند البعض الآخر من أجزائها منتقداً وآسفا على أنها ليست عند كل ما أحب وأهوى، أو أطمح إليه من منزلة الإتقان العليا، وكثيراً ما وددت، وبخور الثناء المتصاعد على الرسائل يعبق من كل جانب، لو أنها كانت بحق

بذلك الثناء العام، والرضـــاء التام. وكثيرا مـــا تمنيت لو أن ظروف الزمان ساعدت على تكملة البرنامج الذى وضعته فى نفسى، وامتلك على عواطفى ومشاعرى وأعنى به: منهج التربية والتثـــقيف والتهذيب للناشئ فى حياته العملية بعد المدرسة، على نمط الرسائل الأخيرة.

حتى لقد خطر ببالى أن أضع بضع رســـائل على نمط الجزء الأخير الذى أشرت إليه، وأضمـــها إلى هذه لتكون «الرسائل» جديرة بما لاقت من استـــحســـان وإعجـــاب، فلم يطاوعنى الفكر لأن البواعث التـــى حركت العواطف لكتابة هذه الرسائل لم تعد حية ولا حساسة ولا فعالة. وليس فى مقدور الصناعـــة أن تحل محل الإلهام والشعـــور! فلم أر بدّاً، بعد أن نفدت نسخ الكتاب، بسرعة غـــير مألوفة فى عالم المطبوعـــات العربية، من إعادة طبعها. ،رأيت من الواجب علىّ أن أضم إليـــها بعض كلمات الكتاب والأدباء والعلماء الذين قرظوها بعـــد أن قرأوها، لا لأننى أفخر بما فيـــها من مدح وإطراء، ولكنى أردت أن أجعل هذه الكلمات الغاليات؛ من جهة، ستراً على ما فى الرسائل من نقص وعـــيب، ولأنها، من جهة أخرى، صحـــيفة أدب زاهرة، وباقة حكم عاطرة، وضـــياع عبيرها بـــين أوراق الصحف المهملة، إساءة لا تغتفر إلى الأدب الصحيح، والعلم الناضج، والحكمة الغالية.

وأسأل الله سبحانه وتعـــالى أن ينتفع بهذه الرسائل كل ناشئ ويافع من أبناء هذا الوطن العزيز.

«أحمد حافظ عوض»

آراء نخبة من كبار أدباء العصر
في رسائل من والد لولده

كلمة شيخ البلغاء، وإمام الأدباء في هذا العصر بلا نزاع، ونعني به الكاتب الجليل السيد محمد بك المويلحي، واضع رسائل «عيسى بن هشام» التي طبقت شهرتها الخافقين، قال أعزه الله وأبقاه:

«ما أكثر ما نسمع عن هذا الرقي العصري في التعليم والتربية، وما أقل ما نقرأ من المباحث في الطرق القويمة التي تؤدي إلى الارتقاء فيهما فعلا لا قولا، وحقا لا وهما، فقد أشكل علينا الأمر، وتشعبت بنا السبل، إذ أخذنا فيهما بالأسلوب الغربي، مصبوبا على الأسلوب الشرقي، بدون تمييز ولا تبيين، وبغير هدى ولا كتاب منير، فأصبحنا في حالة لا شرقية ولا غربية، ومشينا في طريقنا مشية غرابية، وسلكنا خطة عوجاء، وصرنا إذا انتمينا، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء.

وكان أول ما يجب في هذا الباب، أن نعمد إلى البحث والدرس، والتوفيق بين الأسلوبين، وحسن المزج بين الطريقتين، لاستخلاص قاعدة بينة، وخطة محكمة، يستقيم بها السير، ويتبين منها الرشد، لكنه باب لم يطرقه فينا إلى اليوم طارق، أو يعالجه، مع شدة الحاجة إليه، معالج.

وقد استبشرت اليوم خيراً، عند اطلاعي على هذا الكتاب، فقد ألم بالشيء الكثير في هذا الباب، وتناول القول فيه بأحسن متناول.

ولو تعددت بيننا مثل هذه الرسائل، لأيقنا بالوصول إلى طريق الكمال المنشود، ولسعد فينا والد، ولم يشق مولود.

محمد المويلحي

من الأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى

سيدى الكاتب الكبير، والصديق الكريم، أحمد حافظ بك عوض

الآن والساعة الثالثة بعد نصف الليل، فرغت من قراءة رسالتك «من والد إلى ولده»، فأعجبت بها الإعجاب كله، وسجلت لك أنك قد بلغت فيها الغاية التى تنتهى عندها حكمة الحكماء، وبلاغة الكتاب، ودقة الناظرين والباحثين فى هذا العصر. ولم أجد بدّاً قبل أن أنهض إلى مضجعى، من أن أكتب لك كلمة أصور لك فيها ما تركته فى نفسى من الأثر فأقول لك:

إننى ما أتممتها حتى تمنيت أن لو عاد عهد صباى، لا لأتمتع به كما يتمنى المتمنون، بل لأكون أحد تلاميذ مدرستك، الجاثين بين يديك، يستمعون منك هذه الآيات البينات، والعظات البالغات، فينتفعون بها فى تكوين حياتهم الأولى، ووضعها على أساس من الحكمة متين.

أما وقد فاتنى ذلك، بل فاتتنى الحياة بأجمعها، خيرها وشرها، وسعودها ونحوسها، فلم يفتنى أن أضعها بين يدى ولدى الصغير، وأن أنصح له باتخاذها إمامه الذى يقتدى به، وأستاذه الذى يستمع له، ومناره الذى يستضىء بنوره فى ظلمات حياته. فإن قدر له النجاح، وهو ما أؤمله له، وأضرع إلى الله تعالى فيه، كنت أنت يا سيدى أباه الأول، وكان هو ولدك الثانى، وكان فضلك على وعليه عظيما.

أدامك الله للأدب تعلى مكانه، والعلم ترفع شأنه، والأخلاق تهذب معوجها، والوطن تذود عنه، وأبناء الوطن تنهض بهم إلى ذروة الحياة الطيبة السعيدة، والسلام عليك من صديقك القديم.

مصطفى لطفى المنفلوطى

من الكاتب البليغ الشيخ عبد العزيز البشرى

عزيزى حافظ بك:

لو أنك أهديت إلي كتابك من ثمانـــى سنوات مضت، ما عدوت سنن المنطق فى ترديد النظر فيه، وتقليب الرأى عليه، ووزن قيـــمته، كتابا من هذه الكتب التى تخرج للناس فى فن التربية والتهذيب. أما الآن، وقد أصـــبحت رب أولاد، فقد قرأت كتابك بعقلى وقلبى جميعاً.

لقد يهديك العلم ويهديك طول الاختبار، إلى أن تجيد فى فن التربية كتابا، ولكنْ لعلك لم تكن بالغاً كثيراً مما بلغت ولا قليلا.

تلك رسائل قلبك إلى كبدك، يتنـــفس فيها بكل ما اعتلج فيه من حب وعـــطف وإخلاص، وذلك الذى لا تبلغه علوم العلماء، ولا تتراقى إليه بلاغات البلغاء.

قد يرتقى العلم فيطبع قـــواعد قائمة الحدود مستـــوية الأطراف، تنظم متفرق المسائل فتـــجمع كل باب على شمله، وترد كل شكل إلى شكله، ولكنهـــا فى الغاية إنما تتمثل صماء جامدة، أفتر ما تكون عن أن تخالط النفس، أو أن تريق عليها ذلك الشعاع الذى يهديها مذاهب الحياة، فلا تلبث أن تعود فتثـــوى إلى أفاحيصها فى كتبها إذ نفس الشباب تفتأ هائمة فى مهامه الشباب.

لقد قرأت فى رسائلك إلى ولدك، علم العالم وفن المربى، ونصح الحكيم، ولكنك قد تهيأ لك ما لم يتهيأ لهؤلاء، لأنك صغتها بلغة القلب، فكان سبيلها إلى القلب.

لم تكن - إذ تكتب رسائلك هذه - تؤلف فى التربيـــة كتابا، ولكنك إنما كنت تطبع نفسا فتية على المجد والسعادة والجـــمال، وتلك التى تنتهى إليها كبيرات المنى، فى كل نواحى هذا العالم.

إنك أردت أن تحسن إلى ولدك، فأحـــسنت يا «حافظ» إلى الناس كلهم. أحسنت عالماً مؤلفاً، وأحسنت مربيـــا مرشداً، وأحسنت والداً لا يهم قلبه إلا أن يبرع ولده أهل الأرض جميعاً.

شكر الله لك، وأثابك ثوباً يتجدد على الأبد، ما تهـــدى بكتابك والد، وما سعد به ولد.

عبد العزيز البشرى

من العالم المحقق إسماعيل بك مظهر

عزيزى حافظ بك:

إن خير الأعمال ما صدر عن شعـــور صحيح، مصحوب بانفعال ثابت الأثر فى النفس. وكل سطر من سطور رســـائلك، لسان ناطق بما خالج وجـــدانك من عواطف الأبوة، والانفعال المحسوس بشعور الواجب، مقرونا بحاسة من الجمال المعنوى، تعبر أبلغ تعبير عن لواعج الإشفاق على مستقبل من هم للحياة زينة، وللمستقبل ذخر.. وما أقرب ما تعبـــر عنه رسائلك، مما تعبر عنه عقـــائد الأديان، الراسخة فى النفس، من حقائق هذا الوجود الإنسانى. فإن كان حب الدين، والتثبت فى اليقين، غريزة نفسية، فإن الحب الأبوى فـــطرة، إن لم نقل إنها أسبـــق من عقائد الأديان وجـــوداً فى النفس البشرية، فلا أقل من أن نشعر بأنها تساويهـــا فى الأثر والقيمة؛ لذلك استحالت نفسى إلى كثير من الصور المختلفة، وأنا مكب على مطالعة رسائلك، فمن شعور بالخوف، إلى إحساس بالشفقة والحنان، ومن عاطفة فى الحب، إلى انفعال قوى الأثر، ومن استعماق فى التأمل، إلى استرسال لذيذ مع بواعث الأمل.. غيـــر أن هذه المجموعة بما فيها من مختلف الألوان، قد خلفت فى نفسى صورة فيها من الألفة، وحسن النسق، ما مثل لى الجمال مجسما، فى أسطر كـــتاب واحد!. هنالك علمت بأن كتابك يصح أن يكون درساً للآباء، كما أنه منارة وضاءة بنور الهداية للأبناء.

لقد قمت بواجبك نحو نفسك، ونحو حشاشتك التى خلفتها لهذا الوجود، فلا شكر لك منه على واجب. أما إذا أثنى عليك أحـــد، فإنما يثنى عليك الآباء؛ لأنك أمليت عليهم درساً ذا قيمة فى هذه الحـــياة، ويثنى عليك الأبناء، لأنك كشفت لهم عن تجارب حياتك ليسترشدوا بها ذات فانية، فى حياة لا بقاء لها.

وإننى كوالد أشعر بثقل الواجب، وعبء المسئوليـــة نحو من أصبحت سببا فى وجودهم فى هذه الحياة، لا أستطيع إلا أن أزف إليك أخلص عبارات الثناء.

إسماعيل مظهر

من الأستاذ سليم سركيس

عزيز حافظ بك:

بعد أن فرغت من مطالعة رسائلك إلى نجلك الأديب فى الكتاب الذى عنوانه «من والد إلى ولده»، أرسلت النسخة التى تفضلت بإهدائها إلىّ مع بريد أمس إلى ولدى «أنور» الذى يتلقى العلم فى مدرسة القديس چورج فى القدس الشريف وكتبت إليه الكتاب الذى ترى صورته طى كتابى إليك.

إذن فإن تحيتى لرسائلك وإعجابى بها قد ظهرا ظهوراً ليس أوضح منه فى رغبتى أن يجعلها ولدى درساً له فى حياته. واقبل تحيات رصيفك القديم، وصديقك الحميم.

سليم سركيس

صورة الخطاب

ولدى المحبوب أنور:

كنت من حين إلى آخر أوافيك بهدايا مختلفة الأنواع والأثمان، فضلا عن النقود التى لا أعتقد أننى كنت بخيلا بها. وأما اليوم فقد أرسلت إليك مع هذا البريد هدية هى أثمن وأغلى من كل ما أرسلت. والتى أرجو أن تجعلها نصب عينيك وهى «رسائل من والد إلى ولده» كتبها صديقى القديم حافظ بك عوض إلى ولده أيام كان يتلقى العلم نظيرك الآن. فطالعها أيها العزيز وتأمل فى معانيها، واعلم أنها خير مدرسة تهذب الأخلاق، وتهدى إلى الصواب، وهذه الرسائل مع أنها مكتوبة إلى شخص معين، فهى جديرة بأن يتخذها كل فتى، يريد الخير فى مستقبله، كأنها مكتوبة إليه بالذات. وحسنا تفعل يا ولدى المحبوب أن تطلع عليها رفاقك الطلبة لأننى أريد الخير للجميع. وعلى أمل أن تستعين بهذه الرسائل على مستقبل حياتك، أقبّلك تكراراً، والله يحفظك لوالدك المشتاق.

سليم سركيس

من الأستاذ العقاد

حضرة الأستاذ اللوذعى أحمد بك حافظ عوض:

تلقيت بالشكر كتاب رسالك الممتعة المرسومة بعنوان «من والد إلى ولده» وقرأت منها ما اتسع الوقت لقراءته، فرأيت ما يذكر برسائل تشسترفيلد وهنرى سدني وغيرهما ممن أحسنوا النصح والعبارة. نعم في الرسائل ما يخالف رأيي من بعض الوجوه، ولكنى أعد ذلك ميزة لها، لأن الكتاب الذى لا يجد فيه أحد ما يخالفه غير حقيق بأن يقرأ.

وجملة القول كنت أبا واحداً فأصبحت بعد نشر هذه الرسائل ألف أب، بل أبا لكل ناشىء يطلع عليها ويستفيد منها. فلك الشكر بقدر ما أفدت.

عباس محمود العقاد

من المؤرخ المحقق إلياس بك الأيوبى

عزيزى حافظ بك:

أشكرك من صميم فؤادى على هديتك القيمة التى شرفتني بها وهى «رسائل من والد إلى ولده» فقد قـــرأتها بلذة لا يزيد عليها سوى الفـــائدة التى علقت بذهنى منها، فأنت، برسائلك هذه إلى ولدك، لم تضع برنامـــجاً مختاراً أحسن الاختيـــار للتعليم كما يجب أن يكون فى عصرنا لشبابنا المصريين خاصـــة والشرقيين عامة فحسب، ولكن دللت كل من يتعرض للكتابة، كما تريدها مقتضيات الأيام، إلى الطريقة المثلى للتعبير، بلغة عربية حديثة أنيقة، عن أفكار صقلهـــا التعرف باللغات الأجنبية وآدابها. فخليق برسائلك هذه أن تحل من لغتنا العربية المعـــاصرة محل «رسائل مدام دى منتنون» من لغة القرن الثامن عشر.

وخليق بكل والد أن لا يجعلها فقط نبراســـه فى تربية ولده، ولكن ليضعها بين يدى بنيه، ليساعدوه، بمطالعتها وبدرسها درســـا عميقا، على جعل الجهود التى يبذلها فى سبيل إجادة تربيتهم خصيبة مثمرة.

أنا أعرفك يا صديقى، كاتباً قـــديراً، ذا فكر نيّر حر، منذ كنت محرراً فى المؤيد، منذ سنة ١٨٩٨، تكتب فيه المقالات الممتعة، التى كنت أقرأها بلذة وإعجاب. فكنت فى تلك الأيام البعيـــدة أندب حظ اللغة العربية، لأن ضرورة الكـــد لكسب العيش اليومى، وبعض نزق الشباب الشـــمل بنشوة الشهرة اليومية، يضطـــرانك إلى إضاعة مواهبك النادرة فى جهود ذاهبة هباء منثوراً، ذهاب الكنوز - التى قد تبرز الجرائد مملوءة بها أحيانا عن أيدى ســـبا! وكذلك بالرغم من صحة المثل اللاتينى القـــائل: «أما الكلام فإلى الهواء، وأما الكتابة فإلى البقاء!» كل ذلك بد لا من تخصيص تلك المواهب الجميلة لوضع كتب قيمـــة تزدان بها الآداب العربية. مع أن اللغة العربية، كـــما يعرف المطلعون على آداب اللغات الأجنبية، مفتقرة فى أدبياتها إلـــى كتب قيمة بقدر ما هى غنية فى كثرة ألفاظها، وجميلة فى جلال تعبـــيراتها وأناقتها. ومع أن الواجب يقضى على المتكلمين بها الذين - فوق امتلاكـــهم زمامها - تعرفوا باللغات الأجنبية، التـــعرف الطابع للعقلية

والفكر بطابع المدنية العصرية، أن يعـــملوا كل ما هو فى وسعهم - كل فى دائرته - على ملء الفراغ الشائن الذى يمكنهم، تعرفـــهم بأدبيات تلك اللغات، من أن يروه فى دائرة أدبياتها، و لا يراه غيرهم ممن قصروا تعلمهم على اقتباس اللغة العربية.

فلما تفضلت وأطلعتنى على ما كتبت فى مـــقدمتك «لتاريخ الحملة الفرنساوية على مصر» انتعشت نفـــسى وطربت طرب المرء الذى يرى شجرة ثمينة تطرح ثمراً شهياً، بعد أن رآها تكتفى دوما بما تتبرج به كل عام من هالة الزهر البديع. وبت أنتظر بفارغ الصبر أن يتمه قلمك الأنيق فى القريب العاجل، ويخرج إلى قراء العربية السفر النفيس الذى أطلعتنى على بعض درره[1].

ولكن سرعان ما عادت حركة الحياة الصحفية فاستردتك واستأثرت بجهودك مرة أخرى. وسرعان ما أقامتك فى أول صـــفوف المقاتلين القتال اليومى، وأنستك فى وطيس المعمعة، ما أنت مطالب به نحو أدبيات لغتنا العربية وأدبائها فعدت أندب سوء حظ التأليف الخالد من جهودك.

وإذا بولدك النجيب، بنشره هذه الرسائل الممتـــعة التى بعثت بها إليه وهو فى المدرسة، قد أقام لك فى جهة من أفق الخلد، لم أكن لأنتظرها، عرشا سنيا.

فأما وقد أصبحت فى عـــداد من لن يموت من الكتاب، فخليق بك أن تتذكر أن عبقريتك تطالبك بألا تكون هذه الرسائل كل مـــا تراه الأجيال القادمة فى يدك، وأنت جالس على ذلك العرش، وإن من كان مثلك مغرما بالتاريخ، وواسع الاطلاع على كنوزه، حقيق بأن يضع فيه أسفاراً أبدية. فـــاكتب وانشر. فنحن متعطشون للكرع من منهلك الغزير. والسلام عليك ورحمة الله.

إلياس الأيوبى

---

(١) يشير إلى كتاب فتح مصر الحديث لصاحب هذه الرسائل.

من سيدة الكاتبات والمفكرات
الآنسة (مى)

سيدى حافظ بك:

كلمة مألوفة، وغير مناقش فيها - وإن كانت من أوسع أبواب المناقشة، وأجدى مواردها - تلك التى تعنى أن الوالدين ملجأ الولد، وممهدا وسائل العيش أمامه، وأن قلبيهما دون سواهما، يدخران الكفاف لحاجة قلبه، من محبة ونصح وتدبير ورعاية. والواقع أنه قل من الأهل من قام بكل واجبه أو ببعضه، بل قل منهم من فهم مزاج ولده وأدرك ما فرض عليه نحو هذا المخلوق الذى أوجده لاهياً أو جاداً، وجل ما يفعل أكثر الوالدين فى معترك العمر، ترك أولادهم بلا عدة و لا ذخيرة - وقد قيدوهم من جهة بما نقلوا إليهم من خصائص وراثية، وحاجات بشرية، وقيدوهم من جهة أخرى بقيود المرتبة والبيئة والمجتمع، وإن كان هناك يتامى حرمهم الموت إعزاز الأبوين وعنايتهما، فكم من ولد يعيش يتيما، وإن قضى عمره بين أبيه وأمه!.. كم من ولد يعيش شقياً فترهقه الأشغال، ويتحتم عليه اقتحام المصاعب تحت مهماز الحياة القاسى، فينن فى وحدته باكياً: «إنى فى حاجة إلى أب! إنى فى حاجة إلى أم! أريد من الأب عطفا، مقرونا بحزم الرجل، وأريد من الأم حنانا، ممزوجا بتبصر المرأة!» وأيّا كان حظ الولد من والديه، سواء أكان بهما سعيداً أم غير سعيد، تراه وإن كان أشد الناس بأساً وأمضاهم عزيمة... تراه فى أوقات معينة من حياته يتلمس شيئاً من الأبوة والأمومة فى النفوس التى قدر له أن يركن إليها على خط رحلته الدنيوية - نفوس كريمة تمد نحوه أيديها الخفية، طافحة بعطايا المحبة والرحمة والاهتمام.

ولقد كنت فى هذه الرسائل «يا سيدى» من تلك النفوس الودودة الباردة، لأنك وإن جعلتها هدية عطف منك لولدك السعيد، فشفت الصورة النظرية منها عن عنايتك العملية به، فإنى أرى جماعة من الذين كتبوا إليك عن هذه المجموعة، ذهبوا إلى أنك فيها أب لكثيرين. فولدك من قارنيها - الناشئ اليتيم، والآخر الذى يعيش وفى قلبه ذل اليتم، وعلى شفتيه شكواه، وذلك الآخر الذى لا يلقى من والده الإدارة وإعمال الفكرة وسعة الصدر، فتكون له فى كتابك الأب المعنوى الذى يوثق به، وتلتمس معونته، فى الألم والحيرة والارتياب.

يقولون إنه إذا كانت محبة الوالدة غريزية، فمحبة الوالد اكتسابية تنمو وتنتظم بعادات المجتمع وأحكام قوانينه؛ ولعل الأصوب هو أن هذه العاطفة، ككل عاطفة سواها، تابعة للنفس التي تنشأ فيها، فهي في النفس الجامدة مثلجة صماء، وفي النفس الحمقاء هوجاء شعواء، وهي متقدة فطنة في النفس الحاذقة المتلظية.

وللقائل في سره «ترى كيف يحب الوالد؟ ترى كيف تحب الوالدة؟». جئت أنت بالجواب في الرسالة الأولى حيث وصفت حبك لولدك وصفاً جذاباً جميلاً، ولكن أهو كما تقول «نهاية الفناء في إنكار الذات؟» أم هو على نقيض ذلك إثبات لذات أوسع وأشمل، وتطلع إلى بقاء أبقى؟ إني شديدة الحذر من حب الذات ولا أراه إلا متحينا الفرص ليعلن التنازل عن نفسه، بينما هو في الواقع يتعرج ويتلوى مندساً بشتى المظاهر والمعاني من كل عاطفة وكل فكر وكل عمل، وأصارحك أني تذوقت هذه الرسالة الأولى وبي بعض الإجفال، لأنه لاح لي أنك بتلك العاطفة الآمرة، الحضانة المستأثرة، ترمي إلى استهواء الولد، كمن ينكر عليه شخصيته المستقلة، وتنفث في روعه وجوب التقييد على الدوام بالرأي الذي تبسط، والخطة التي تسن؛ محدداً أمامه المستقبل على نوع ما، ومجردة من إمكانية الاختيار الفردي، والتصرف الحر، فما أتيت على تلك الرسالة الأولى إلا وقد قررت «هذا تحكم شريف باسم الحب»!.

غير أني ما انتقلت إلى الرسائل التالية إلا وأبصرت فكرك يتملص من ضغط العاطفة، مستويا في أفق التبصر والنور والعرفان، فكنت هناك أقرب إلى الإنصاف، وجاهرت غير مرة خلال تلك المجموعة، برغبتك في أن يتخرج ولدك على الاستقلال الفردي، وجوهر التصريف العقلي، أي تربية الذهن تربية واسعة، مطلقة تعوده النظر الصائب إلى مسائل الحياة المختلفة، وحل المشكلات، والأخذ بمقتضيات الأحوال «لأن التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما. فالعلوم والمعارف والتهذيب والأخلاق التي كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه في زمن المأمون العباسي وعصره العربي الزاهر، ليست أبداً هي المعارف والصفات التي تمكنه من الظهور في هذا العصر الذي اشتدت فيه المنافسة»... فإنك بهذا الإثبات، وما نحا نحوه، أنلت رأيك المرونة المطلوبة، فتسنى للقارئ أن يستوحيه على الدوام فيستفيد ويتنشط؛ لأن النصيحة الحكيمة على خطورتها قد تغل الملكات، إلا إذا نبهت المستشير إلى أن لكل حال تدبيراً يلائمها دون سواه، وأن الظافر ليس من استفاد من تجارب غيره فحسب، بل من اعتبر بتلك التجارب، ومن تجاربه جميعا، فيترك اختباره الخاص إرثا مضافا إلى الاختبار الإنساني العام... تلك هي الحياة! ولن تفرش الأيام سبلنا بالورود، وإن أجهدتم

نفوسكم، أيهـا الآباء الألباء، فى نزع الأشـواك تحت خطانا، وإزاحة العـثرات التى تعترضنا، ستجرحنا الحياة كما جرحتكم! وتصـرعنا قبضتها الحديدية، فنمتثل ريثما يستهلك علينا المقدور ما تحتم أن نكابده من عذاب ونكال، وغاية ما تستطيعون، هو أن تقووا فينا الشجاعة المعنوية، والاتكال عـلى النفس، والاحتمال بقوة وإباء، وتعلمونا براعة الكفـاح فى حينه، غير خـانعين أمام الألم المثقف، ولا ناكصين علـى أعقاب الخذلان، تاركين لنا من عطفكم، وعنايتكم وحكمتكم، ذكرى وسلوى وقدوة.

كذلك رسمت هذه الرسائل منك صورة غير صورة الصحافى اليقظ المنوع، التى نراها كل يوم فى «المحروسة»، فللمرء فى العمر مواقف كثيرة يحرج فيها ويحرج، إلا أن حمى العمل تترك له ساعات، له أن يقضيها لاهيا، وله أن يلجأ فيها إلى داخل نفسه، متبينا هناك أقـصى ما يصدق فيه، وأحب ما ينزع إليه، فاخـترت هذه العزلة النبيلة، لتفيد وتستفيد، وذلك من عجائب المحـبة النقية السامية «إنها تغنى المعطى، كما تغنى الآخذ»! وكيف لا يستفيد الصديق الكبير المعالج الحياة، الذائق طعومها، إذا عطف على صديقه الصغير، ليبين له الأمور بصـدق وجلاء؟ فإذا كان ولدك قد فتح فى نفسك عند ولادته «بابا للعواطف كان مغلقا»، فإنه يوم شـنت أن تهذب مشاعره وتوجد أفكاره، وتنظم حياته، قد رفعك إلى أفق عـال من الإخلاص والنبل، لتأتى خدمة، هى من أجل ما يبذله الجيل الحاضـر، فى سبيل الجيل التالى - عنيت بتهيئتـه للأخذ بصالح نفسه، وصالح البلاد التى هو ابنها، وصالح الإنسـانية التى هو جزء منها، ولئن حق لولدك أن يغتبط بأن يكون هو موضوع الرسائل التى ظهر من كلمته فى صدرها أنه أهل لها، وأن تنتقل هذه الرسائل إلى الجـمهور عن طريقه، فإنه كذلك كـان السبب فى أن يبرزها والده فيصير بها (أبًا)، وليـس كل والد يستحق أن يلقب بالأب..! لقد كنت جديراً باسم الأب، ليس بتنميق هذه الرسائل وحسن تقسيمها وبتـرتيبها وسلاسة تتابعها، وبراعة تلخيص الموضوعات على تشعبهـا، فذلك فضل للكاتب المشبع الذهن إطلاعا، المصرى طلاوة، الإسلامى بيـانا - ولكنك كنت أبا بمجرد التفكير فى إنشـائها لأن هذه الفكرة وليدة حب وافر، وعناية كريمة، وإدراك لأهمية الواجب والمسئولية.

فهنيئا للولد بأبيه، وللأب بولده، وعاشا طويلا يتبادلان عواطف الثقة والاحترام، والرقى والشكران.

(مى)

من شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران

أخى حافظ بك:

جاء كتابك والوقت إليه داع، وله ضرورته فى عـــالم الاجتماع. جاء والأمة فى منقلب من تاريخها، قد تحول ما كانت عليه من خلق عتيد، وصارت دون ما تؤثر من خلق جديد. وبالبداهة ليس الذى يتغيـــر هو الشيخ الذى مرت به الغير والكوارث، بل الطفل الذى يستقل ما تجىء به العبـــر والحوادث. وهذا لا يرى الصواب بعينى رأسه، ولا يتعظ بما لم يقع على حسه، ولم يعج بنفسه، بل يرى بعينى أبيه، ويزدجر بنصيحة مرشده، مـــتسقطاً أنباء الذين بلوا الأيام قبله - ومن أصـــدق نبأ ممن أسقط فى يده - متعلماً من حاجات زمانه ما يعلم، متفهماً من مقومات ضميره أصلح شكل للحضارة المستجدة ما يفهم. ومن هنا كان ســـرورى عظيما بكتابك لأنه ظهر فكشف غمة، وأن طريقاً فى وجوه النشء مدلهمة. كتاب غير مسبوق، إذ لم يفطن الآباء الشرقيون من قبل إلى أن للولد على والده حقا وراء الكفالة، كما أنهم لم يظنوا أن فى النعم التى يغدقها ناجل على نجله، نعمة أكـــبر من الإرسال إلى المدرسة. فإن تناهى البـــر، وأعان الوفر، فغاية ما فى المجـــهود أن تكون المدرسة أضخم نفقة، وأبعد شـــقة، وفوق هذه الغاية، الموكولة لهـــم غيرهم، لم يخطر عـــلى قلب أحدهم، ولو كان عـــلامة دهره، ومنارة عصره، شىء يريده فلذة كبده.

أما أنت فقد كنت أول من أعطى ابنه حظا من جـــهده، وراء نقده، وفضلا من خبرته ومعرفته، علاوة على ما اكترى له من أدب المؤدب الأجنبى وفلسفته! فحاولت أن توصل إلى ذهن سليلك من أقـــرب الطرق وبأحب الأساليب؛ أبلغ مـــا أوصلتك إليه التجارب. فإن كان قد طالع رسائلك حق مطالعـــتها، فعنده اليوم ذلك القدر من علمك مضافا إليـــه علمه. وناهيك به على هذه الطريقة الوفيرة البـــركات: فتى رجل، عجل باختبارك اختباره، وتكامل بحلمك حلمه.

لقد جاش فى خاطرى عند قراءتى الكتاب أن أتابعك فيه بحثا، وأن أبين للناس بالدليل المستخرج من فـــصوله، ما مكانته من أساس الغد الموعـــود، وما حليته فى تاج الاستقلال المنشود، فما كانت ليلة أو ضـــحاها حتى نظرت فإذا الكتاب مفقود، وإذا أنا

أبحث عنه بحث المفلس، عن ورقة نقد منسية فى حارة اليهود!! ولكن ما قولى نكدا، وعلام أسفى وقد سبقتنى النابغة «مى» فأشارت بألطف ما يشار، وصارحت بأوضح ما يصارح به، سامية ما يشاء سمو النظر فى استطلاع طلع الحقائق، متعمقة إلى نهاية التدقيق فى استخراج أخفى الجواهر النابتة فى أصدافها، وراء علم النفس، وأنى لى أن آتى بأمثال لآياتها البينات، وهل من حاجة بعدها إلى مقنعات أو منبهات؟

فيا أيها الصديق، لا أخالنى مغاليا إذا قلت إن الشباب سيكونون مدينين لبلاغة قلمك العجيب، ولفطنة نجلك النجيب، بأحسن ما يرجى أن يزدهى به مستقبل مصر، من أخلاقهم المنيفة، وآدابهم الرقيقة الظريفة، ونتائج حلومهم القوية الرزينة، وآثار علومهم الواسعة المكينة. في الفخارك يوم يتقدم كل كاتب بكتاب بين يدى الرقى والعمران، وتكون رسائلك هذه مقدمة لنهضة جليلة، وعنوان الزمن من أكبر الأزمان.

خليل مطران

من الأستاذ العالم الشيخ محمد أبو عنيبة

إلى الأستاذ حافظ بك:

نوهت الصحف برسائلك وقرظهـــا المقرظون، فما زادنى هذا و لا ذاك، على أن قلت إن «حافظا» رجل صحـــفى انقطع للصحافة وأعطاها نفســـه كلها، قضى زهرة حياته فى مزاولتها حتى اغترب غـــاربها، وتسنم ذروتها، وملك ناصيتها، وأصبح علما بين أعلامها، وقطبا يشار إليه بين أقطابها، ومن ينكر ذلك وهو يقرأ له ما يقرأ فى فنون السياسة قديمهـــا وحديثها، حزنها وسهلها، ظاهرها وباطنهـــا، بأسلوب فتان وبيان ساحر.. هذا «حافظ»، وهذا نصيـــبه فى الصحافة، وهو نصيب كبيـــر، وكبير جداً... ورجل كهذا بذل كل جـــهده فى هذا الميدان، يعز علىّ أن أفـــهم أن له وراء هذا الجهد جهداً آخر بذله فى ميدان آخر.. «ميدان التربية والتهذيب».

هذا! «يا حافظ بك»، هو الخاطر الأول الذى حدثتك أنه مر بخاطري قبل أن أقرأ الرسائل، لم يزعزعه ما اطلعت عليه من تقريظ كـــبار الكتاب، وإن كان فيهم من أعرف له توخى الحق إذا حكم، والرأى الصائب إذا قدر، كمحمد بك المويلحى، وفهم من أعرف له البراعة القادرة فى تحليل العواطف النفسيـــة، وتقدير كل عاطفة قدرها كالأستاذ المنفلوطى. أقول على الرغم من هذا كله، بقى هذا الخاطر فى نفسى تحت هذا العنوان: «عزيز جداً أن ينبغ المرء فى الصحافة وفى التربية معا»، ولكنى بعد أن قرأت الرسائل شعرت بأنى ظلمتك فنقصتك حقـــا هو لك بلا بيئة وبغير مقطع من مقاطع الحق. فإن رأيت أن اعترافى بهذا الذنب كفارة له، فذلك إليك.

قرأت الرسائل فذهب ذلكم الخاطر، وحلت مـــحله هذه الحقائق الناصعة، وهى أنك سددت ثلمة واسعة كانت تهدد صرح التربية والتهذيب، وأنك لم تقو على سد هذه الثلمة إلا بعد أن عنيت عناية جديرة بدراسة كتب التربية عن أعلام الفن شرقاً وغرباً. إنك جمعت من ثمرات أفكارهم، ونتائج قرائحهم ما جعلك جديرا بأن تتبوأ بينهم مكانا تغبط عليه، لهـــذا وبهذا، بلغت الغاية التى مكنتك مما صنعت فأخـــرجت للناس خير كتاب، فى هذا الباب... حددت التربية العصرية النافعة تحديداً أو بينت بالأدلة العملية، والمشاهدات الماثلة، أقوم وأقصر طريق يوصل إليـــها لينال المربى غاية النجاح فى كفاح هذه الحياة، و لا يمكن أن يقدر كتابك هذا حق قدره إلا من قرأه، وقرأه بإمعان، ووعى جميع ما قرأ: أن به من الجنى الطيب الشىء الكثير بل كله جنى، وكله طيب.

محمد أبو عنيبة

المدرس بدار العلوم

من الأستاذ المربى أحمد بك فهمى العمروسى

صديقى الحميم، وتلميذى القديم، أحمد حافظ عوض بك:

تحية وسلاما. وبعد فـــقد تسلمت مؤلفكم الحديث (من والد إلى ولده) وقرأته برغبة وشوق، فأحدث فى نفسى ارتياحا وانشراحا لم آنسهما من مؤلف آخر. وليس مبعث هذا السرور هو ما يشعر به الأستاذ عادة من العطف الطبعى والميل الغريزى إلى النابغين من تلاميذه فحسب، بل لأن تلك الرسائل الشـــيقة التى دبجها قلمك الفياض، ونسجها فكرك المبدع، فيما يثلج صدر المربى ويأخذ بلب المعلم. وليس غريبا عندى ذلك البيان الساحر، وهذا الفكر الثاقب. فلـــقد كنت أقرأ فى صحائف وجهك، وأنت طالب صغير، دلائل النبوغ، ومخايل العبقرية.

ولتعلم أيها الصديق أنه لا شىء أجمل فخراً، وأبقى أثرا، من أن يرى المعلم تلميذه قد فاق الإخوان، وبز الأقران، ولا سيما فى معـــترك الحياة العملية الحرة، التى ضربت فيهـــا بسهمين، وأصبحت فى طليـــعة كبار الكُتّاب المفكرين، وقـــد زادنى إعجابا بك وفخرا، أنك وأنت تعالج مهنة كثيرة المشاغل، وعرة المسالك، فكرت فى الشئون الحيوية العامة، فجمعت نتائج أفكارك فى التربية، وهى دقيقة، وخلاصة تجاربك فى التعليم، وهى صحيحـــة، وقدمتها إلى بنى وطنك عملاً صالحـــا، وأثرا خالدا، فجزاك الله عن التربية والتعليم خير الجزاء، وأبقاك دليلا يقتفى، ومثالا يحتذى.

حقا أن قولك فى رسالتك لولدك: «ومتى نمت فـــيه تلك العاطفة، عاطفة الحب ومثلها عند المعلم، فقد وجد بين الاثنين سيال الكـــهرباء النفسية حتى لقد ينساب العلم من عقل المعلم إلى عقل تلميذه، انســـياب الماء فى الأنابيب من المرتفعات حتى يتساوى المستوى بينهما»... إلخ، لهو جدير حـــقيقة بالإعجاب، وخليق بأن يطلع عليه كل من وقف نفسه على التربية والتعليم.

بَنَى صديقى «حافـــظ بك» التربية والتعليم على أســـاس الحب وأبان أنه الثمرة المرجوة منهمـــا، ورسم الغاية القصوى التى يجب أن يرميا إليـــها، وهى تكوين العقل تكوينا صحيحا، وتربية الذهن تربيـــة «واسعة مطلقة تعوّده حل المشكلات، وتصريف

الأمور، والنظر إلى مسائل الحياة المختلفة. نظرا فلسفيا راقيا، كما ينظر الطائر المحلق فى الجو إلى مدينة من المدن أو صقع من الاصقاع».. وفى الواقع ليس التعليم الصحيح شحن الأدمغة بالمعلومات المختلفة، وتكديسها بعضها فوق بعض وكفى، بل الغرض النهائى منه أن يكون فى رأس الإنسان عقل يجعله مستعدا للابتكار والاستنباط وتصريف الأمور والتبصر بعواقبها.

أحمد فهمى العمروسى

مدير المجلس الفنى بوزارة المعارف

الرسالة الأولى

إلى ولدى العزيز:

قبل أن تقرأ هذه الرسائل التى وضعتها حبًا فيك، وشغفًا بك، وحرصًا على مستقبلك، وهداية لك، وإرشادًا فى سبل حياتك، أحب أن أشرح لك العوامل التى دفعتنى إلى توجيهها إليك، وأوضح لك العواطف التى حملتنى على أن أبادر بوضع هذه المبادئ والخطط لك، خشية أن يذهب الدهر بى، كما ذهب من قبل بغيرى، فلعلك، حين تظهر لك حقيقة ما يشعر به نحوك أبوك من عواطف الحب الأبوى، تقدر كلامه حق قدره، وتتمسك بأهدابه، وتسلك الطريق الذى يرشدك إليه.

وإنى أؤكد لك، ولكل إنسان لم يصر بعد أبا لمثلك، أنه ليس فى الدنيا عاطفة أقوى من عاطفة حب الوالد لولده. وأنا واثق أنك إذا فهمت أنت، ومن كان مثلك، معنى هذا الحب الذى تتأجج ناره، وتسرى روحه فى جميع أجزاء جسم أبيك، وجدت أنك إذا اعتبرت أن فيما يلقيه عليك والدك، من النصيحة والإرشاد، وحيا من الذات الإلهية، ما كنت فى هذا الاعتبار مبالغًا؛ لأن النصح الذى يصدر من نفس متشبعة متشعة بنور هذا الحب، لهو مستمد من وحى الله إلى القلوب التى خلقها وأودعها سره الإلهى.

توجد عواطف قوية أشد من عاطفة الحب، كعاطفة الانتقام وعاطفة الطموح إلى المعالى.. ولكنها على قوتها، وكبير سلطتها، ممزوجة بالأنانية وحب الذات وشراهة النفس. أما عاطفة الحب فهى، على لينها وحنانها، أمتن رسوخا وأدق امتزاجا بالروح، لأنها أقرب إلى الفطرة، وأثرها منصرف إلى العطف على موضوع وجودها، لا إلى خدمة مطامع القائم بها. ذلك أن فى حب العاشق عشيقه، دافعًا له إلى الانعطاف على مالكة لبه وسالبة فؤاده، وإلى إرضاء شهوة الحب من حيث هى؛ ولذا تراه مستعدًا للتضحية بكل غالٍ ومرتخص، من نفس ونفيس، فى سبيل إسعاد من تعلق قلبه بهواها. والحب، وهذا مكانه من الشرف

والسمو على جميع العواطف الأخرى، أقل بكثير، فى قيمته ونوعه وجوهره وعرضه، من نوع الحب الخاص الذى يحسه الوالد لولده؛ لأنه نهاية الفناء فى إنكار الذات، ولأنه غير مشوب بشىء من أثر الشهوات، ولأنه فوق هذا وذاك نهاية الكمالات.

ولقد خبرت العواطف على جميع درجاتها وأصنافها، فلم أجد عاطفة أقوى تملكا للنفس، وتمسكا بالحس، من الحب الذى شعرت به نحوك منذ وجدت إلى اليوم. ولو شئت أن أحاول وصف حبى لك، فلن أستطيع أن أقول سوى أنه نوع غريب من الحب له معان وتصورات وصفات، غير الحب المعروف عادة. وأذكر بهذه المناسبة أنك يوم ولدت جاءنى من صديق ذكى أديب خطاب تهنئة، لا يزال عندى بين الآثار التى أحفظها - ليكون لك ذكرى فى المستقبل، وفيه يقول:

«اليوم يفتح لك فى قلبك باب قد كان مغلقًا من قبل. وسيكون هذا الحب الأبوى واسطة فى تهذيب مشاعرك، كما أنه سيزيد فى تلطيف مزاجك، وترقيق وجدانك».

وما كنت أتصور إذ ذاك معنى هذه الكلمات بمقدار ما تصورته بعد. فهذا الحب الغريب المالك لأزمَّة قلبى، الذى يشع كما يشع النور فى كل ذرة من جسمى، الممتزج امتزاج الماء بالراح بجميع عواطفى ووجدانى وإحساسى، والمتخلل كافة خلايا وجودى...

هذا الحب الكامل هو الذى يملى علىّ ما أوجهه لك ولإخوتك من النصح والإرشاد.

ففكر فى قوة هذا العامل وفى جلاله لكى تركن إليه، وتستمع له، ولا تخالفه فى هدايته:

لا أنكر عليك أنه لا يبعد أن تجد نفسك - وقد بلغت فى يوم من الأيام مبلغ الرجال الذين عركوا الدهر واختبروا الناس ودرسوا الحياة دراسة كاملة، - على خلاف معى فى بعض الآراء التى أعرضها عليك. وإنما أرجوك أن تتذكر - أولا أننى فيما أضعه لك من القضايا العامة لا يمكن أن يوجد بينى وبينك، أو بين أحد من الذين تقدموا لطرق هذا الباب، خلاف. وأما فى تفاصيل الأحكام

على الأمور والناس والظروف، فإن كثيراً منهـا قد يظهر فى أشكال شتى باختلاف الظرف والمكان. ولكن متى نضج العـقل واشتد ساعده، أصبح قـادراً على مقابلة كل حالة من تلك الشواذ بما يناسبها، وأعلى قـدر صاحبه وحفظه من السقوط فى مهواة الأخطار أو الأسف.

ولابد لى أن أنبهك إلى أنه إذا جاز لك فى مستقبل عمرك أن تناقش رأيا من آرائى، أو تضعه تحت منظار الـشك، فلا يجوز لك أن تتعرض لهـذا العمل الشاق المحفوف بخطر الخطأ، قبل أن تصل إلى مثل سنى واختبارى فى الحياة. وإذا أردت أن تعتـمد على - وأنت بلا شك مـقتنع بشـديد رغبتى فى خـيرك - فـلا تحاول الاختلاف فى نقطـة أو دقيقة من الرأى معى؛ لأنك لا تصل إلـى مثل ما وصلت إليه من صحـة النظر فى الأمور، إلا إذا دُست شوك التجـربة الذى دُستُه. أى أنه يلزمك أن تضحى بكثير من راحـتك ومن صحتك ومن مستقبلك، لتـعرف مثلما عرفت. وأولى لك ولمن كـان على شاكلتك، أن تسـتفيـدوا من تجارب غـيركم. واذكر كلمة القـائل: «لعل آثار أقدامنا فى رمال الصحراء، تهدى ضـالا إلى سبيل الأمن والهناء».

وهذه الرسائل التى أضـعها لك إنما أردت أن تكون أمام عـينيك تهديك فى صحـراء هذه الحياة إلى سـاحل السلامة. فـإذا لاح لك أن تتحول عنهـا قليلا فى وقت من الأوقـات، فلا تبعـد عنها بمقـدار يضلك فى قفـارها، بل سر يمـيناً أو يساراً، ولكن ارجع بأسرع ما يمكن، إلى الطريق الذى رسمته لك.

كن مع نصحى هذا كما تكون فى حمام البـحر وأنت لا تعرف السباحة. لا تترك الحبل من يدك لئلا تغرق، وإن درت حوله كـيفما درت، فأنت آمن ما دامت يدك قابضـة عليه. وإذا بلغت اليوم الذى تجـد فيه نفسـك عالمًا ماهراً بالسـباحة، فلست فى حـاجة إلى هذا الحـبل. ولكنى أؤكـد أنك ستـجـد نفسك، وقـد بلغ الشعور بقوتك ومقـدرتك مبلغه، فاندفعت تسبح برأيك مسـتقلا - فى حاجة إلى الرجوع إلى شاطئ والدك ومرفئه وهو فى هذه الرسائل.

والله أسأل أن يوفقك ويهديك ويجـعلك أقدر على نصح نفسك من نصحى لها.

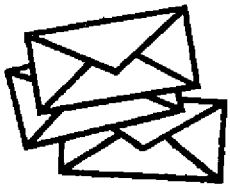

الرسالة الثانية

ولدى العزيز:

كثير من الناس المحبين لتهذيب أبنائهم وتربيتهم تربية صالحة يسارعون إلى إرسال أولادهم إلى المدارس أو المكاتب وهم فى سن الطفولة الباكرة، فى الخامسة أو السادسة من سنى حياتهم. وبعضهم يبدأ فى إلقاء الدروس عليهم بواسطة المعلمين أو المعلمات فى مثل هذه السن، حبا منهم فى حشو أدمغة أبنائهم الأطفال بمبادئ العلوم والعرفان، فلا يكاد الطفل يصل إلى التاسعة من عمره إلا وقد خطا خطوة واسعة فى التعلم، ولكنى أخالف، عن اعتقاد، هذه القاعدة، ولم أرد أن أبدأ بتعليمك حرفًا واحدًا قبل الثامنة من عمرك. وكنت أسمع الاعتراضات فى ذلك فلا أحفل بها لأننى أرى أن التسرع فى حشو ذهن النابت بالمعارف ومبادئ العلوم، وما يرتبط بها من حفظ كلمات اللغات، مما يضر بصحة الناشئ ويجعل استعداده العقلى أقل مما لو ترك ينمو مع الطبيعة يفهمها وتفهمه.

وما أدرى ما فائدة أن يتمم المبتدئ دروس التعليم الابتدائى على ما نعرفه فى قطرنا المصرى ويجوز امتحان الشهادة الابتدائية فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، ثم ينوء عقله تحت أعباء التعليم الثانوى فلا يكون مبرزًا فيه، وقلما يتممه فى المدد المقررة له، وقد لاحظت على كثير من الشبان المصريين الذين عرفتهم معرفة تامة، وخبرت ماضيهم فى التربية، ولاحظت كذلك فى نفسى، أن الطفل المصرى شديد التأثر، سريع البديهة، فإذا أثقل عقله فى صغره، ظهر عليه الضعف والكلال فى كبره. ولاحظت أيضًا أن الطفل الذى يبدأ بتعليمه قبل أن يشتد ساعده فى سن السادسة أو السابعة، ويكون شديد الذكاء، ميالا إلى الدرس، منكبًا على العمل، بحيث يتمم دراسته المعروفة عندنا، ويحوز الشهادة العالية مثلا فى سن الثامنة عشرة أو العشرين على الأكثر - وقد رأيت وعرفت من هذا الفريق كثيرين.. أقول لاحظت على هؤلاء أن نجاحهم فى الحياة يكون غالبًا بطيئًا جدًا، وقلما يتخطون درجة من الرقى مخصوصة، كأنهم يضعفون جسما وعقلا،

وبالعكس لاحظت كثيراً أن من دخلوا فى صف التعليم فى سن متأخرة نسبيًّا، ينجحون بسرعة وينظرون إلى فروع العلم نظر الرجال، ويختارون منها بمقدار ما يؤهلهم للفوز فى الامتحان، والفوز فى الحياة.

وقد فضلت فى أمر تربيتك التوسط بين الطرفين فتركتك تلعب وتنمو وتجالد الطبيعة حتى تجاوزت الثامنة من عمرك وبعثت بك للتعليم. وأظن أن تجربتى قد أفادتك لما ألاحظه عليك فى هذا الدور من النجابة وسرعة إدراك ما يعجز عنه من كان فى سن أصغر من سنك ولو أنه يتلقى مثل دروسك.

ولا أريد أن أعرض عليك نصيحة أو بيانًا فيما يختص بالتعليم الابتدائى لأنك فيه كغيرك مسيَّر لا مخيَّر، وقل أن تقدر على الاستفادة من رأى أطرحه عليك وأنت فى مثل هذه السن، والكثير مما أكتبه لك فى هذه الرسائل هو لفائدتك فى أوقات أخرى حين تبلغ سن الإدراك الحقيقى وتركن إلى آراء والدك وتنصرف فى تهذيب نفسك، وتوسيع دائرة عقلك، إلى ما أرسمه لك من الخطط والأساليب وما يخطر على بالك مما يناسب أوقاتك وظروفك.

ولكن ذلك لا يمنعنى أن أنبهك إلى مسائل قد تنفعك فى مستقبل الزمان إذا مَنَّ الله عليك بأبناء تريد العناية بتربيتهم وتعليمهم، ولعل فيما أكتبه لك فى هذا الباب فائدة أخرى للآباء والمعلمين.

يحسن بالنابت فى دور التعليم الابتدائى أن يحافظ على مبدأ الإتقان أو الضبط فى كل ما يقوم به من الكتابة، أو يكلفه من التمرينات؛ لأنه إذا نشأ على تلك الصفة فى ترتيب كراساته ورسم حروف الكتابة، ووضع أرقام المسائل الحسابية، وتخطيط المصورات الجغرافية، تربت فيه ملكة العناية والإتقان والدقة، وتأصلت فيه صفة الحرص على عمله، والرزانة فى فكره، ولا يطلب من النابت فى سن التاسعة أو العاشرة أن يجلس للدراسة وينكبّ على المطالعة، ويحفظ الكثير من الأبيات الشعرية، والقطع النثرية عن ظهر قلب؛ لأنها لا تفيده شيئًا، ولا يبقى منها حرف واحد بعد زمن قليل، ولا تربى فيه ملكة الذوق فى الإنشاء، أو تترك فى دماغه أثر ما فيها من الحسن وجمال التركيب. فكل عمل من هذا القبيل فاسد مضيع للوقت، بل مستعب لعقل الناشئ لأنه يحمله أكثر مما يستطيع،

ثم لا يشحذ ذهنه للتأمل والاستنباط والقياس. وإذا كان الإنسان فى سن الثلاثين لا يتذكر كثيراً مما حفظه من القطع والأبيات والحكم النثرية والشعرية، وهو فى سن العشرين وفوق العشرين، فكيف ينتفع ناشئ بما يكلف حفظه عن ظهر قلب وهو فى سن العاشرة مثلا.

هذه هى مبادئ علماء التربية الحديثين الذين استفادوا من تجارب غيرهم، وهذه كذلك خبرتى الخصوصية تؤيد فكرة إهمال تحفيظ الناشئين جملا وعبارات مطولة أو مختصرة. وكل ما يجب الحرص عليه فى هذا الدور هو شحذ الذهن وتوسيع دائرة الخيال وتنمية فكرة المنطق والاستدلال والقياس، فى العقل، بمعنى أن يقتصر على مطالعة تلك المعانى الجميلة والعبارات المأثورة عن كبار الكتاب السابقين ويترك للمبتدئ التأمل فيها، وإدراك معانيها العامة والخاصة، لأن لكل قول حسن معنيين: معنى عاما على ظاهره يكفى إدراكه لتصور الغرض منه، كما أن له معنى خاصًا وهو ما انطوى عليه من حكمة عالية، أو غرض بعيد، أو تحليل فلسفى دقيق.

وقد رأيت نفسى على الرغم منها، مجبراً على أن أتركك لمعلميك فى المدرسة السير بك على ما رسم لهم فى نظم التعليم؛ لأنك مضطر أن تأخذ درجات مخصوصة، وتنتقل فى أدوار التعليم المدرسى. لكنى مع هذا أوجه نظرك إلى معنى ما تقرأه، ولم أكلفك تلاوة ما تحفظه من تلك العبارات حتى لا تفهم أننى أفرح كما يفرح كثيرون من الآباء إذا ردد أبناؤهم أبياتًا من الشعر، أو جملا من النثر.

واعلم يا بنى أن العبرة فى التربية والتعليم هى تثقيف الذهن وإعداده لمقابلة الحوادث والأمور المختلفة حسية كانت أو معنوية، والسعى فى معالجتها وتكييف كل ظرف بما يناسبه... ولن تقوى هذه الملكة، ملكة التروى والتصور وقياس المسائل بعضها ببعض، وتقدير كل حال بما يناسبها - أو هى بالاختصار ملكة المنطق فى الأمور المادية والأدبية - إلا بالتأمل والاستقراء وإمعاء ملكة البحث والشغف بالوصول إلى معرفة الحقائق، وتنمية هذه الملكة وتكوينها وشحذها من أسهل الأمور على المتعلم والمعلم والابن والوالد. انظر إلى السموات والأرضين،

واسأل عن الكواكب والنجوم، واسأل عن الماء والهواء، والأشجار والأثمار، والفواكه والأزهار، واسأل كيف تسبر قُطُر الترام، وكيف تجرى هذه السيارة، وكيف تدور هذه الساعة وتلك الآلة... اسأل كل من يعرف. اسأل معلمك. اسأل إخوانك، اسأل صديقك، اسأل جارك. اسأل البعيد والقريب. والعدو والحبيب، والمواطن الغريب، عن كل ما تصبو إليه نفسك، وعما تولده فيك الرغبة من حب الوقوف على الأسباب والمسببات، والأصول والفروع، إلى آخر ما يشتهيه عقلك، وتتوق إلى فهمه نفسك.

هذه الملكة، التى أشرت إليها بغاية الاختصار، أرى أن ترتيبها فى نفسك، أفضل لك مائة ألف مرة من كل ما تحفظه من أقوال المتقدمين والمتأخرين لأن ما تأخذه عنهم، وتحفظه منهم. إنما هو عارية. أما تكوين ملكة البحث والاستقراء، فهو منك ولك، وهى التى تنفعك فى مستقبل حياتك، فضلا عن أنها ألزم الصفات وأولى الوسائل فى تلقى علومك، وتكوين خلقك.

فأنا لا أعنى بما تحفظه وتقرأه وتجيده من علم وأدب خصوصًا فى سنك تلك، بقدر ما أعنى بحسن نظرك، وصدق فراستك، وشغفك بالمعرفة، وغرامك بالوقوف على حقيقة ما لم تكن تعرف.

فإذا تأصّلت فيك صفة الضبط فى إتقان عملك وترتيب أوراقك وكتبك وتنظيم ملابسك وأدوات دراستك..

ثم متى قويت فيك فى هذا السن ملكة التأمل والبحث والاستقراء والاستنتاج والمقارنة والشغف بفهم ما لم تفهم..

إذا تم لك هذا وذاك، فقد وضعت فى خلقك الحجر الأساسى فى بناء تربيتك وكنت به أقدر على مقاومة الزمن، ومكافحة الحوادث، ومقابلة الحياة فى متاعبها ولذاتها. والله اسأل أن يكلأك بعين عنايته، ويهديك إلى الطريق التى أحب وأريدها لك.

وإنى أقبّل وجنتيك وأدعو لك بالصحة والعافية. حفظك الله يا بنى وأبقاك.

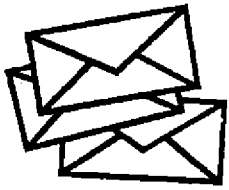

الرسالة الثالثة

ولدى العزيز:

أشرت إليك فى ختام رسالتى السابقة إلى ضرورة تقوية ملكة البحث والاستقراء والملاحظة. وقد رأيت أن أتوسع فى هذا الموضوع بما يليق به لأنه فى نظرى أساس كل تربية وتعليم وتهذيب واستعداد للجهاد فى الحياة..

الكثير يا بنى مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا. وليس هذا القول نتيجة اختبارى وحدى، بل هو رأى عام صرح به كثيرون من ذوى المكانة المعروفة فى عالم التربية والأخلاق والاجتماع. ولو كنت أريد فى هذه الرسائل أن أستشهد بآراء من لهم شهرة عالية مقررة فى فروع العلوم البشرية لنقلت لك فى هذا المصدر كثيراً من أقوال أولئك العلماء الأعلام.

والذى يمنعنى عن الاستشهاد بأقوالهم، على ما فيها من بلاغة الكلم وسمو الفكر، هو أننى أعتبر هذه الرسائل موجهة إلى ولد لا يصح له أن يطالب والده بدليل أو برهان أو حجة على صحة دعاويه. ولا أريد من جهة أخرى أن أبعث فى نفسك أثر الشك فى مبدأ أضعه لك، بما أتبعه به من الاستناد إلى أقوال من لهم شهرة ثابتة، كما أننى أعتقد أن الحب الأبوى الذى يملى علىَّ ما أكتبه لك، لا يناقش فى نصيحة يعرضها، أو قضية يقررها، وأعود بعد هذا الاستطراد الذى أدى بنا إليه ما قررت، من أن كثيرين من ذوى المكانة المعترف بها قد صرحوا بمثل هذا الرأى فى التربية والتعليم، وهو أن الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا.

ومن المدهش، يا ولدى العزيز، أن هذه القضية على غرابتها، قد تكون بدهية متفقا عليها، ومع هذه البداهة وهذا الإجماع لم يبذل الناس شيئًا من المجهود فى سبيل تغيير نظم التعليم والتثقيف والإعداد للعمل والفوز فى الحياة. بل ترى الناس يبعثون بأولادهم إلى نفس المدارس التى تلقوا علومهم فيها،

وأضاعوا زهرة الحياة فى المرور من سراديبها وأبوابها، وعرفوا بعد ذلك أنهم لم يستفيدوا منها بقدر ما أضاعوه من العمر والتعب والفرص.

نعم حصلت محاولات ضعيفة من بعض علماء التربية فأرادوا إنشاء مدارس جديدة على نظم حديثة كما فعلوا فى ألمانيا بنوع خاص، وكما أراد أن يفعل «ديمولان» وأمثاله، ولكنهم إما عجزوا عن استنباط طريقة مضمونة لإعداد الناشئين للنجاح فى الحياة والاستفادة منها بمقدار ما يضيعونه من العمر فى زمن التعليم، وإما أنهم لم يجرؤوا على مقاومة الاعتقاد العالم لدى آباء الناشئين، فلم يتيسر لهم وجود العدد الكافى من التلاميذ - ذلك العدد الذى يلزم حتما لعمل تجربة جديدة غير مألوفة - وزد على ذلك أنه لابد لظهور فضل الطريقة الحديثة من زمن طويل يكفى لتخريج الطالب ودخوله فى معمعة الحياة، وإثبات فضل الطريقة الجديدة على القديمة.

وليس مما يحتاج إلى إقامة دليل أو مناقشة إيضاحية، أن التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما، فالعلوم والمعارف والتهذيب والأخلاق التى كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه فى زمن المأمون العباسى وعصره العربى الزاهر، ليست أبداً هى المعارف والصفات التى تمكنه من الظهور فى هذا العصر، الذى اشتدت فيه المنافسة وصارت علومه وآدابه فى حالة تستدعى تربية خاصة، كما أنه لا يصح أن يتصور أحد أن ما يتلقاه أبناؤنا فى مدارسنا المعروفة فى بلادنا هو وحده ما يؤهلهم لأن يكونوا من رجال هذا العالم لأن مدارسنا - ولا أكتم عنك الحقيقة بل ولا أخفيها عن أى من الناس - لا تصلح إلا لإعداد طبقة من الأفندية الذين يقرأون ويكتبون ويلهجون بألفاظ من اللغات الأجنبية وهم كيفما أجادوا الكلام بها، لم يدخلوا فى روحها ، ولم ينهلوا من آدابها وعلومها، وهم فوق هذا وذاك - وإن امتلأت أدمغتهم بجميع فروع العلوم المعروفة عندنا، وصاروا من حملة الشهادات فى الطب أو الحقوق أو التعليم أو الهندسة أو الأدبيات - تنقصهم معارف ومعلومات تجعل نجاحهم فى الحياة، واستفادتهم من علومهم المدرسية، أكثر ضمانة وأوفر غاية، وتنقصهم أيضًا صفات وأخلاق وتهذيب ممتاز، يزين نفوسهم، ويتوج معارفهم وعلومهم، ويجعل حياتهم أكثر سعادة، وأوفر راحة، وينقصهم أيضًا جوهر من جواهر الحكمة الصحيحة، وهو

جوهر التصريف العقلى، وأعنى به تربية الذهن تربية واسعة مطلقة تعوده حل المشكلات، وتصريف الأمور، والنظر فى مسائل الحياة المختلفة، نظراً فلسفيًا راقيًا كما ينظر الطائر المحلق فى الجو إلى مدينة من المدن، أو صقع من الأصقاع.

وفى اعتقادى أن هذه الصفة الأخيرة أو الجوهر الذى أشرت إليه، هو ثمرة العلم والتعليم والتهذيب والدروس والامتحانات، وكل ما فى هذا الوجود من أثر التربية.

وهو هذا الجوهر الذى أريد أن أنميه فيك وأشحذ ذهنك للاستعداد له، وإنى أكون راضيًا مسروراً، آمنا عليك وعلى مستقبلك فى حياتك، إذا أنت استطعت أن تخرج من جميع دور التعليم ودرجاته بذلك الجوهر الذى هو الكل فى الكل.

هذا الجوهر الذى هو كما قلت لك غاية الغايات، يجب أن يربى فى عقول الناشئين من الصغر وليس كما يتوهم بعضهم من أن الكثير منه أثر من آثار المزاج الفطرى للإنسان - وإن كان فى هذا القول ظل ضئيل من الحقيقة - أو أنه من الأمور التى لا يبدأ فى الالتفات إليها إلا بعد أن يتقدم الناشئ فى مدارج الحياة ويتلقى جميع أصول العلوم المعروفة، ولا تتصورون أن تدريب الذهن، وتربية العقل للنمو اللازم لإدراك تلك المنزلة العالية، من الأمور الصعبة، أو أنه مما يحتاج إلى دروس خاصة أوعلوم مطلوبة.

لو أن كل أب أو والدة أو مربية وكل أستاذ ومعلم، بل كل ناشئ وجَّه نظره إلى شحذ القريحة ولفت الذهن إلى التفكير والتأمل والقياس والاستنتاج والملاحظة والمقارنة فى كل ما يعرض على النظر، أو يقع تحت الحس، لنمت فى الناشئين تلك الملكة العالية التى هى روح التربية، والتى لا تتم تربية بغيرها.

ونصيحتى لك بعد هذه المقدمة الطويلة، إذا كنت تريد أن لا تقع فى مثل ما وقعنا فيه من إضاعة الوقت فى كثير من الدراسة التى لم تفدنا فى حياتنا، وإذا كنت تريد أيضا أن تجعل الدراسة والتعلم عملا غير شاق أو مكروه من نفسك، فاعتن بتربية تلك الملكة بدافع من نفسك، مع ما أستطيعه من إرشادك، وبما يستطيع أى معلميك إرشادك إليه.

وتأكد أن الرجل لا يكون رجلا عالمًا راقيًا إلا إذا كان فى رأسه عقل يصلح لكل علم، ولكل عمل ولكل وظيفة، ولكل ظرف وحال، وهذا العقل الراقى الواسع الذى يجعل صاحبه مستعدًا لمقابلة الحوادث، وتصريف الأمور، وحل المشكلات، لا يربى بحفظ أسماء البلدان والأنهر، ولا بأسماء الملوك والقواد، ولا بالإعراب والإنشاء، ولا برطانة أجنبية، أو تلاوة عبارات أدبية أو علمية أو فلسفية.

هذا العقل ينمو من التفكير والتمعن والنظر - كما قلت لك - إلى جميع ما يقع تحت العين أو الحس، نظر المفكر المتأمل الملاحظ، المستنبط المستفهم المتصور. فإذا مررت فى الطريق ورأيت عربات الترام تسير كما ترى، ففكر فى شكلها أولا، وفى نظام الموظفين المنوط بهم صرف التذاكر والتفتيش ثانيًا، وفكر فى الوسائد الخشبية التى وراء ظهرك، ولماذا وضعت؟ وكيف تتغير من جانب إلى آخر؟ وفكر فى الخشب الذى صنعت منه العربات، ومن أى بلاد أتى، والألوان التى صبغ الخشب بها. وفكر بعد ذلك فى القوة التى تحرك هذه العربات، وكيف تسيل فى الأسلاك والآلات، وكيف تنير المصابيح وهلم جرا.. وهلم جرا..

ولا تتصوَّرن يا بنى أننى أريد منك أن تعرف حقيقة كل شىء من هذا القبيل وطريقته العملية، أو صناعته الفنية.. وإنما أريد منك ألا تمر على ما يقع تحت نظرك مرور الأعمى، وأنت ذو عينين مبصرتين!!

اسأل من تظن أنه أعرف منك إذا عجزت عن معرفة شىء، لماذا هذا الشىء طويل، وهذا قصير، وهذا أحمر، وهذا أخضر؟ ثم إذا ارتقيت فى الفكر، وتقدمت فى السن، وتوسعت فى العلم، فاجعل هذه الطريقة الابتدائية قياسًا لك فى الاستفهام من المعلم أو الصاحب أو الأخ.

هذا هو الذى أريده بالتمرين العقلى الذى يربى فيك تلك الملكة العالية التى هى مفتاح السعادة، وطريق العلم، وباب الحكمة.

ومن كان معلما أو مربيًا أو والدًا فليجعل ذلك غاية له.

أنار الله يا بنى بصيرتك وشرح للعلم صدرك إنه على ما يشاء قدير.

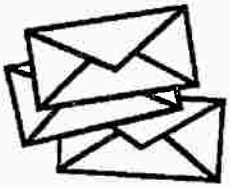

الرسالة الرابعة
التمرين العقلى

ولدى العزيز:

لا أريد فى هذه الرسالة أن أنصح لك بالمواظبة على دروسك، والالتفات إلى معلميك فى أثناء إلقائهم الدروس عليك وعلى رفقائك فى المكتب. ولا أقصد أيضا أن أحثك على مسابقة أقرانك لتكون دائما موضع ثقة وعناية أساتذتك، فإن مثل هذا النصح مألوف معروف، بل يكاد يكون العمل به أمرًا طبعيًا وصفة غريزية فى النفس، وما رأيت تلميذًا قد استفاد من نصح بهذه الطريقة، أو من هذا النوع من الحث والإرشاد، ولكن الذى أريد أن أوجه نظرك إليه بنوع خاص هو أمران:

أولهما - أن توجد بينك وبين أساتذتك جميعًا، لا فرق بين معلم الخط ومعلم اللغة، عاطفة ميل وانعطاف وشعور بأنك من الواحد منهم، فى منزلة الابن من أبيه. وقد دلتنى خبرتى فى التعلم والتعليم، أنه حين توجد تلك العاطفة، وذلك الشعور بين التلميذ وأستاذه، تخف متاعب الاثنين فى الفهم والتفهيم وتوجد عند التلميذ، من جراء ذلك الميل، رغبة شديدة فى تلقف ما يلقيه عليه المعلم، وشغف كبير بالإصاخة له، والاستفادة منه. وكذلك يشعر الأستاذ نفسه دائمًا بأن هذا التلميذ جزء من متممات وظيفته، فلا يستريح له خاطر إلا إذا تأكد أن هذا التلميذ، الذى يشعر نحوه هذا الشعور، ويحس تجاهه هذا الإحساس، قد فهم ووعى ما ألقاه من الدرس والإيضاح.

ونحن يا بنى مهما كنا، وكيفما كانت وظيفتنا، وكان مركزنا وعملنا، أناس على الفطرة الطبعية لا نشذ عنها مطلقا. فالمعلم، مثلك ومثل كل إنسان، ذو عاطفة إنسانية يحس فى عمله، كما يحس كل فرد فى معاملته لشخص مثله. فهو مهما «قبض على قلبه بيده»، وكان مع تلاميذه غير متحيز ولا يميز الواحد على الآخر، لا يستطيع أن «يمسك قلبه» دون الانعطاف بنوع خاص، والحنان بصفة مخالفة للمعتاد، نحو عدد من التلاميذ الذين يظهرون المحبة والميل إليه، بالإصاخة

له، وبالترديد لعاطفة الرغبة فى تسهيل عمله. ومتى تمت فيه تلك العاطفة، ووجد ما يماثلها عند التلميذ، فقد تمشى بين الاثنين سيال الكهرباء النفسية، حتى لقد ينساب العلم من عقل المعلم إلى عقل تلميذه، انسياب الماء فى الأنابيب من المرتفعات، حتى يتساوى المستوى بينهما.

ولا غرابة فى ذلك لأن الحب على أنواع شتى، ودرجات مختلفة، فهو بين الوالد وولده، والأم وابنها، والعاشق ومعشوقه، والصديق وصديقه، والمعلم وتلميذه، وأصحاب الصفات المتشاكلة المتماثلة بعضهم مع بعض - عاطفة تفتق الذهن، وتوجد الحنان، وتوسع دائرة الخيال، وتصفى الفطرة الإنسانية. والذين بالغوا فقالوا: «الله محبة»! و«الحب رابطة الوجود»! معذورون فى خيالهم، فإذا كان من حظك، أو كان من عملك، أن تتمكن من بعث نور هذا الحب فى قلب معلمك، واستطاع هو بذكائه، ولطف مزاجه، ورقة حاشيته، أن يبعث فى صدرك وصدر رفقائك التلاميذ أثراً من نور تلك العاطفة، فقد خف تعب التعلم عن التلميذ، وسهل التعليم على الأستاذ.

وقد اشتغلت بالتعليم زمنًا قصيراً فكنت، قبل أن أبدأ فى إلقاء دروس، أعامل التلاميذ بلطف ووداعة، وأبعث فيهم الثقة بى، والرغبة فى حضور درسى، وأتفرس فى وجوههم عاطفة الميل نحوى، وأطارحهم الحديث الشخصى، وأبش فى وجوههم حتى أشعر أننى قد ملكت أزمَّة افئدتهم، وأشعر كذلك بعاطفة الميل منى إليهم - وعندئذ أشتغل بإلقاء الدروس فلا أمل منها، ولا أضيق صدراً بصناعة التعليم - وهى على ما هى معروفة به من المشقة، وكنت أستطيع أن أتم المقرر عليهم فى نصف المدة المخصصة له.

وإتماما لفكرة وجود عاطفة الحب بينى وبين التلاميذ، كنت إذا بدر من بعضهم سوء أدب أو إهمال أو معاكسة أو ما أشبه ذلك، مما يقصده التلاميذ لمضايقة معلميهم، أو لكسل منهم، أو لرغبة بريئة فى اللعب والمهاترة - أقول كنت إذا رأيت شيئًا من هذا، أشتد فى معاملة بعض المسببين له وأقول للبعض الآخر: «إننى لا أصدق أن مثلك فى ذكائه وأدبه وميله إلىَّ يرتكب شيئًا من هذه الصغائر»، ثم أتظاهر بالغضب منهم أجمعين، وأخاطبهم كأنى واحد منهم كبر

علىّ أن أجد منهم ما وجدت، أو أسمع ما سمعت، وهم كأصدقائى، مع إنى كنت إذ ذاك كوالد لأكبرهم فى السن، فكنت، وقد أيقظت منهم عاطفة الحب والإخاء والصفاء، أجدهم قد تأثروا وربما ذرف بعضهم الدمع وتألبوا على ذم المسبب لذلك، ثم يأخذون فى استرضائى حتى أظهر لهم أنى قد صفحت وأننى أحبهم أجمعين، وأننى لذلك الحب والحنان قد عفوت عن الخاطئين منهم.

وأؤكد لك، يا بنى، أننى كنت بهذا أكسب محبتهم، وكنت لا أكلفهم عملا إلا بلغوا به غاية الكمال المستطاع، ولقد كانوا يترقبون الساعة التى كنت أحضر فيها عندهم بنافد الصبر، وأذكر أننى استطعت أن أصلح من أخلاق كثيرين منهم، وأوقظ الاستعداد الفطرى للعلم فى عقولهم بعد أن كان قد يئس منهم آباؤهم ومعلموهم. وما نتج كل هذا إلا بإيجاد عاطفة الميل والحنو من جانب التلميذ نحو معلمه، ومن جانب المعلم نحو تلميذه.

أما الأمر الثانى الذى أريد أن أوجه نظرك إليه فهو أيضًا مرتبط بعاطفة الحب، ولكنه، فى هذا الشطر الثانى، موجه إلى العلم نفسه لا إلى الأساتذة.

لا يمكن لطالب علم أن يستفيد منه فائدة ثابتة، ولا يمكنه أن يتشبع من أصول العلم وتتأصل فيه بذوره، فتنمو وتتفرع، إلا إذا مال إلى ذلك العلم ميلاً صحيحًا، فإذا كان الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يبقى فى أدمغتنا إلا ريثما نؤدى الامتحان فيه.

وإذا كنا نجد فى تعلم العلوم وحفظها ومعالجتها شيئًا من التعب والملل، فما ذلك فى الحالتين، إلا لأننا لم نمل بقلوبنا إلى تلك العلوم.

لا أنكر عليك أن الناس يختلفون فى الميل إلى تلقى العلوم باختلاف أذواقهم ومشاربهم، وأن هذا الاختلاف هو الذى يوجد الميل إلى علم دون آخر، ويوجد ملكة الذوق فى واحد، وبالعكس من ذلك فى آخر.

ولا أنكر عليك أيضًا أن التعلق بالعلم فطرة طبعية غير اكتسابية، وأريد بذلك أن الذهاب إلى المدرسة بعاطفة من الحب لتلقى الدروس والاشتغال بها، خلق لا يعلم، ولا يكتسب بالنصح والحث والإرشاد.

ولكنى فى هذا وذاك أريد أن أدلك على الطريقة، وإن شئت فقل الوسائل، التى تحببك فى العلوم على اختلاف أنواعها بوجه عام، وفى بعضها، أو فى واحد منها، بنوع خاص، لأنك بغير ذلك الحب لا يتيسر لك النجاح فى جميعها، بصفتك طالبا، عليك واجب تؤديه نحوها للفوز فيها، عند الامتحانات، على الأقران.

فأنا مع اعتقادى بعظم تأثير الفطرة الطبعية فينا جميعًا، من حيث الميل إلى شىء، أو النفور منه، لا أعترف مطلقًا بأنه ليس فى مقدرة كل إنسان أن يرقى فى نفسه، بالمعالجة وعدم الاندفاع مع الخيال، ملكة الرغبة فى جميع العلوم، خصوصًا إذا صحب هذه المعالجة قليل من التأمل والحكمة: كأن يقول الطالب فى نفسه: أنا مجبر بمقتضى النظام الذى قضت به البلاد التى أنا فيها، وبمقتضى الخطط التى وضعت للتربية والتعليم والامتحانات والشهادات، وبما يرتبط بها من تقدير الناس بعضهم لبعض، أن أدرس ذلك العلم وأن أجيده لأحصل فيه على درجات كافية. وأنا لا أستطيع أن أصل إلى ذلك وأنا كاره لذلك العلم، نافر منه، فلابد أن أتفاهم معه، وأصادقه ما دمنا على سفر معًا، حتى يتاح لى أن أسير فى طريق غير طريقه، وأتركه لغيرى ممن يحب مصاحبته.

تقول وكيف يمكن التفاهم والميل؟ أجيبك أن ذلك أمر سهل. أولا لا توسع دائرة الكراهية فى نفسك لفن من الفنون، واجمع حواسك على أنه ضرورى لك، واخلق لخيالك محاسن فيه - وإن كان لكل علم من المحاسن ما لا يحتاج معه إلى إرغام الخيال وتكلفه، وعليك أن تضيف إلى الواسطة فى الحب، صفات المعلم ومحبتك لشخصه، ولطفه وأدبه كما أبنت لك فى الجزء الأول من هذا الخطاب.

ومن الوسائل التى تحبب إليك علمًا لا تميل نفسك إليه، محادثة المحبين له، ورغبتك فى مجاراتهم، وشعورك بأنه يجب عليك ألا تكون أقل منهم منزلة وكفاءة فى ذلك العلم.

ومن الوسائل أيضًا أن تطلع، ولو اطلاعا سطحيا، حتى من نوع التفرج، على مطولات ذلك العلم، فإن المطولات تكون أفسح للخيال مجالا، وقد تخلق فيك الشعور بالميل إلى ذلك العلم.

والخلاصة يا بنى: أنك لا تستطيع أن تنجح فى تلقى العلوم، ولا تستطيع أيضًا أن تمضى زمن تعليمك باللذة والسرور والسهولة، إلا إذا كنت محبًّا للعلوم، مقبلا عليها، غير مسوق للتعليم بالعصا أو الضغط أو الخوف.

والله المسئول أن يجعلك ممن يحبون العلم لذاته، فإن محبة العلم تخفف ثلاثة أرباع المشقة فى تلقيه وممارسته.

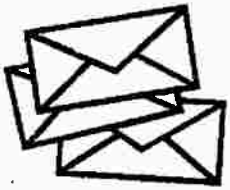

الرسالة الخامسة
التمرين البدنى

ولدى العزيز:

أحب قبل أن أبين لك قيمة التمرين البدنى، بعد أن وضحت لك طريقة التمرين العقلى، أن أضع نصب عينيك الغاية التى هى منتهى الآمال لكل إنسان فى حياته، حتى إذا تصورتها تمام التصور، وعرفت ما فى طريق الوصول إليها من المشاق، والمتاعب والجهاد الدائم، أمكنك أن تأخذ العدة لها وأن تقدر قيمة ما أعرضه عليك فى هذه الرسالة حق قدره، فلا تتوان فى القيام به، ولا تهمل فى الحرص عليه.

إذا أنا دخلت فى موضوع غاية الإنسان فى الحياة، أو ما هى أفضل الغايات التى يجب أن تحث إليها مطايا الآمال، اتسع معى مجال القول، وربما دخلت فى بحث فلسفى ليس هذا محله، فضلا عن أنه ليس مما تتفق عليه العقول البشرية من وجهة النظر، بنسبة ما يتولد فى النفوس من حب المطامع وتوسيع دائرة الطموح إلى المعالى والمجد الفاخر. وقد كتب كثيرون من الكتاب الرسائل المطولة، والأسفار الضخمة فى أساليب النجاح فى الحياة، وما أظن أنها أفادت الناشئين إلا قليلا، وإن كان فيها ما يدل على أن كاتبيها قد خبروا الحياة خبرة واسعة. وقد سبق لى منذ زمن طويل أن وضعت رسالة مطولة فى موضوع النجاح فى الحياة ونشرت فى كتيب اسمه «كلمات فى سبيل الحياة» فإذا كنت تفضل الاطلاع على ما خطه قلم أبيك وما قرره فكره فى هذا الباب فاقرأها بإمعان ففيها الكفاية[1].

أما هنا فإنى أريد أن أنحو طريقًا جديدًا فى بيان الأهمية العظمى التى تترتب على عنايتك بأمر صحتك، وتقوية جسمك، ورياضة بدنك، فى طريق فوزك فى حياتك، الأمر الذى جعلته نصب عينى فيما أنصحك به فى هذه الرسائل، والأمر الذى هو محط الرجال، وغاية الآمال.

---

(١) نفدت كل نسخ ذلك الكتاب، ولهذا رأيت من الواجب أن أعيد طبع تلك الرسالة فى ختام هذه الرسائل.

كلنا يا بنى على سفر فى هذه الحياة منذ الساعة التى نفتح فيها عيوننا لنور هذا الوجود، إلى الساعة، بل اللحظة التى نغمض فيها أحداقنا عنه، وعندها يكون كل فرد منا، قد قطع المرحلة التى خصصت له، طويلة كانت أو قصيرة.

فمنا من يقطعها - نسبيا - براحة واطمئنان وسلام، ومنا من يقطعها بمشقة وحذر وآلام، ومنا من يوفق إلى اجتيازها فى ساعات صفو دائم، ومنا من يجتاز مفازته بالكدر المتواصل المتلاحم، ومنا من تقوده العناية إلى البسير، لقطع مرحلته المخصصة له، بين حدائق وجنات وأعناب، ومن تدفعه إلى السير فى أشواك وأدغال، ووهاد ونجاد، وجبال وهضاب. ومنا من يقطع مرحلته فى جو هادئ ونسيم عليل، وريح بايل، ومنا من يقطعها فى زعازع وأعاصير... وهلم جرا.

فالذى يجب أن يكون نصب عينيك، وهدف سهمك ونهاية مأربك، هو أن تقطع مرحلتك، التى قدرت لك، فى راحة وسلام، وأن تتخير السبل التى تمر فيها على ما تطمئن إليه نفسك، ويصبو إليه فؤادك من المطامع والآمال. وأعنى بذلك أن غايتك، إن كنت من العاقلين، يجب ألا تخرج عن أمرين أولهما راحة النفس، وثانيهما إدراك المعالى.

فإذا علمت أنه لا يمكن الحصول على أحد من هذين - وكلاهما ضرورى لكل ذى نفس سليمة كريمة - إلا بإعداد جسمك فى صحة قوية قادرة على حملك فى سيرك لإدراك غايتك، فقد أمكنك أن تقدر قيمة التمرين البدنى الذى جعلته موضوع رسالتى هذه.

كما يأخذ المسافر قبل سفره عدته التى يعتقد أنها ضرورية لحاجاته، من حقائب وملابس ونقود، أو مأكل أو مشرب، أو غطاء أو فراش، أو ذخيرة أو سلاح، أو خريطة للطريق، كذلك يجب عليك قبل أن تبدأ فى سفر الحياة أن تأخذ العدة اللازمة له.

وفى نظرى أن الصحة وتقوية الجسم هما أهم ما يلزم الاعتماد عليه والتدرع به. وقد يضع كثيرون التربية العقلية قبل الجثمانية فى إعداد الناشئين لقطع مرحلة الحياة. ولكنى أعتقد أن التربية الجثمانية أولى بالتقديم وخصوصًا أن البدء فى إعدادها منذ الصغر ضرورى؛ لأنه إذا فات وقتها، لا يسهل الحصول عليها، فى

حين أن التربية العقلية - كما ظهر فى كثير من الرجال النابغين - قد يبدأ فيها بعد سن متقدمة.

ونحن، يا بنى، نعيش فى عصر رفاهية، وتأنق فى المأكل والملبس، وضيق فى المسكن، وبعد عن الطبيعة النقية، وإفراط فى المأكل والمشرب، واندفاع فى تيار ملاهى هذه المدينة، مما يعرضنا لأمراض متنوعة شديدة خطرة، لا تعد ولا تحصى.

ولهذا كانت العناية بالصحة وتقوية الأجسام منذ الصغر ضربة لازب، بل تربية ضرورية للوصول إلى الغاية من الحياة - تلك الغاية التى جمعتها لك فى كلمتى «راحة النفس» و«إدراك المعالى». وأنا والدك قد كان من حظى أن قضيت زمنًا من دور حياتى الأولى فى المعيشة الخلوية والرياضة البدنية مما لا أظنه يتيسر لك إلا بإرادتك وبمجهوداتك. ومع ذلك أؤكد لك أننى لا أجد فى سبيل تحصيل علم من العلوم، أو الاطلاع على معارف عامة أو خاصة، مما أعتقده نافعًا لى ومريحًا لنفسى فى حياتى، مثل ما أجده من الصعوبة فى حفظ الصحة اللازمة لإدراك الأمل وقطع مرحلة الحياة.

فنصيحتى لك الآن هى أن تدأب على العمل لتقوية بدنك بالألعاب الرياضية المختلفة، ويسرنى أن المدارس اليوم قد جعلت تلك الرياضة الجثمانية جزءًا من وظيفتها، ولكن ما يؤدى فى هذه المدارس قليل جدًا بالنسبة لما يلزمك.

يجب عليك أن تشترك فى جميع الألعاب والرياضات الخلوية، فلعب كرة القدم الإنكليزية مفيد لك جدًا فى تقوية عضلات الجسم خصوصًا عضلات الأرجل والأقدام، وكذلك الجرى والوثب، وأما الجزء الأعلى من الجسم، حيث الصدر والذراعان والأيدى والرقبة، فتلزمه حركات «الجمباز» على «المتوازيين» و«العقلة» وما شابه ذلك.

وإنك يا بنى لا تفرط مطلقًا فى الانهماك فى الألعاب الرياضية المقوية للجسم، مهما وصل بك الأمر إلى جعلها الأساس الأول فى حياتك الأولى؛ لأن كل ما تدخره منها فى صغرك، ينفعك كل النفع فى كبرك، وستأتى عليك أيام كثيرة، إذا مد الله فى أجلك، تذكر فيها هذه النصيحة، وتقدر ما للصحة وتقوية البدن من الفائدة العظمى فى تمهيد الطريق لفوزك فى الحياة.

كل عمل يكون من حظك أن تقوم به فى هذه الحياة، سواء كنت جنديا فى الميدان، أو كاتبًا فى الأدب، أو موظفًا فى الحكومة، أو محاميًا أو طبيبا أو مهندسًا - لا تقدر على تأديته كما تحب أنت لنفسك، إلا إذا كنت فى صحة جيدة وقوة بدنية.

وليست العناية بالتربية الجثمانية مقصورة على ما يلزمك، وأنت فى دور طفولتك وفتوتك، من التمرين والرياضة، ولكنك ستكون فيما بعد من أدوار حياتك المقبلة مكلفا اجتناب أمور شتى واتباع خطط محددة للمحافظة على صحتك، والعناية بسلامتك، ولكن اعلم علم اليقين أن ما تحرزه من قوة الجسم وصحة البدن فى صغرك، يعوض عليك بعض ما تهمل فيه من الواجبات فى كبرك، وربما شرحت لك ما أريده بهذه الإشارة فى مقام آخر.

العقل الحكيم فى الجسم السليم - قضية بدهية تلوكها الألسن وتعترف بها المدارك، ولكنها واحدة من هاتيك القضايا الصحيحة البدهية، النافعة، الضرورية، التى ترى الناس لا يعملون بها ولا يكادون يدركون حقيقتها البارزة، الصامتة، الناطقة، إلا إذا خالفوها أو نبذوها؛ لأنها كالغرض المقصود منها، وهو الصحة: «تاج لا يراه إلا المرضى».

وسلام عليك وتوفيق الله لك..

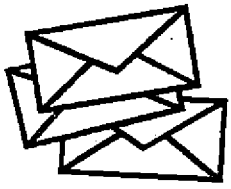

الرسالة السادسة
أهمية تعلم اللغات

ولدى العزيز:

فى رسائلى السابقة إليك وضعت لك أساسات التربية والتعليم من الوجهة العامة، أى من حيث حب العلم، وحب المعلم، وتدريب العقل وتمرينه، وتقوية الجسم وتمتينه. والآن أريد أن أوجه إليك فى هذه الرسالة وما يليها شيئًا من النصائح والإرشادات فيما يختص بأجزاء العلوم والمعارف التى يجب أن تقبل عليها وتتوسع فى دراستها، وأعرض عليك آرائى فى أنواع هاتيك المعارف، وكيفية الاستفادة منها، على الطريقة التى أراها نافعة لك فى مستقبلك، مذللة للعقبات التى تقف فى طريقك عند جهادك فى الحياة المقبلة عليك. فلقد علمتنى تجاربى - كما سبق لى القول فى إحدى رسائلى الماضية - أن الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا، ولهذا وجب علىَّ أن أنبهك إلى ضرورة الاهتمام العظيم بالقليل من هذه المعارف التى أعتقد بالتجربة الشخصية وملاحظة شؤون الغير، أنها أنفع لك من سواها، وأثبت معك فى مواطن الجلاد والجهاد الدنيوى.

وليس مما يحتاج أن أوضحه لك أنك مضطر بحكم العادة، ونظام التعليم، ونماذج الامتحانات، وواجب الحصول على الشهادات، أن تقوم بتحصيل علوم شتى قد لا يكون من حظك فى المستقبل أن تستفيد منها شيئًا، حتى ولا فى ظرف واحد من ظروف حياتك وأعمالك، ولكنك مع هذا مجبر على الاشتغال بها، وقضاء أوقات وبذل مجهودات فى تحصيلها.

ولو كنت فى سعة من العيش تمكننى من أن أنفق على تعليمك وتهذيبك كما أريد، وكما يجب أن تكون، لما أحوجتك إلى اتباع هذه الخطط المطروقة فى التعليم، بمعنى أننى كنت أجود بالمال، مهما كثر، لأمكّنك من تحصيل العلوم النافعة فى الحياة، سواء أكان ذلك هنا، أم فى أى بلد من بلاد العالم، وأسهل لك إتقان اللغات، التى هى فى نظرى، أهم ما يجب عليك الاهتمام به وأنت فى سن التعلم.

نحن يا بنى فى بلد غريب فى مركزه، وأعجوبة فى ظروفه وأحواله، فهو قطعة من أفريقيا، كما هو قطعة من أوربا. بل هو إذا شئت كل أوربا. ولا مبالغة فى هذا، فقد قضت عليه ظروف الزمان، أن يكون ملعبًا لأوربا وسوقا رائجة لأهلها، وطريقا بين الشرق والغرب، وصار من اللازم على كل ناشئ مصرى يريد خدمة بلاده ورقى أمته، ويتطلع كذلك إلى الصعود إلى مراتب المجد فى هذه الديار، أن يتربى تربية خصوصية تجمع بين المعارف الشرقية والآداب العربية والعلوم الغربية، مع التمكن من كثير من اللغات الأوربية.

بمعنى أن الناشئ المصرى، الذى يريد أن ينبغ ويمتاز على الأقران، مكلف إجهاد نفسه للحصول على أكثر مما يكلف إياه ناشئ مثله فى بلد من البلاد الأوربية، فإن الإنكليزى فى إنكلترا مثلا، قد يستطيع أن يصل إلى قمة العلا، ويتسنم سنام المجد، وهو لم يتلق من العلوم غير فرع واحد منها، أو يكتفى بالحصول على معلومات عامة فى جميع الفروع المعروفة، ،قد لا يرى نفسه مرة مضطرًا أن يتقن لغة أخرى غير الإنكليزية، فى حين أن المصرى مسئول أولا أن يتقن لغته العربية، وهى تكاد تكون لغة أجنبية بالنسبة له؛ لأنها ليست لغته التى يتكلم بها مع أمه وأبيه، ولا يكتفى فيها بدراية النحو والصرف وعلوم البلاغة على الوجه العام، بل يلزمه، إذا كان ممن يريدون النبوغ والميزة على الأقران، أن يقف على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، ورقى اللغة العربية فى عصورها الأولى فى أيام المدنية الإسلامية، أى فى عصر بنى أمية وبنى العباس، ورقيها كذلك فى عصر المدنية الأندلسية، ويقف على تاريخ اللغة فى أدوار انحطاطها بعد ذلك فى عصور مختلفة، ونهضاتها فى أوقات متقطعة، فى فترات من الزمن، ثم يمارس الكتابة فيها وينظر بين شعرائها وأدبائها فى العصور المختلفة ليكون حقيقة أدبيًا عربيًا.

ثم يتحتم عليه أن يتعلم لغة أوربية، إما الفرنسية وإما الإنكليزية، تعلمًا تامًا ويقف على آدابها، ويطلع على أقوال شعرائها وكتّابها المتقدمين منهم والمتأخرين، ويجيدها كلاما وكتابة ما استطاع لذلك سبيلا، ويحسن به كذلك أن يتمعن فى أقوال أدبائها ويقابل بينها وبين أقوال كتّاب العربية وأدبائها.

وبعد أن يجيد العربية وإحدى هاتين اللغتين، يجب عليه أن يتعلم ويحسن الكلام والكتابة باللغة الثانية، بمعنى أن العارف باللغة الفرنسية فى هذه البلاد يجد ميدانه أفسح، وطريقه أوضح، إذا هو تعلم اللغة الإنكليزية قراءة وكتابة، وأحسن الحديث بها، وكذلك العارف بالإنكليزية فهو كذلك يجد جواد العمل والفوز فى الحياة أسلس قياداً، إذا هو تعلم الفرنسية وأحسن الحديث والكتابة بها أيضًا.

وإذا هو أتقن هذه اللغات الثلاث يشعر من نفسه فى أوقات ظروف شتى أنه فى حاجة إلى التكلم والكتابة بلغات أخرى مثل التركية مثلا وهى لغة الدولة العثمانية التى نرتبط معها بروابط دينية واجتماعية. وإذا كان من أهل الأدب وعشاق الحقائق، والظامئين إلى الوقوف على كثير من المعارف الشرقية عن العرب أو الفرس، فإنه يشعر عند ذلك أن معرفة اللغة الألمانية من الضروريات، للوقوف على ما كتب ووضع وطبع، من آثار العرب وعن مدنيتهم، من المباحث الراقية العويصة الدقيقة فى لغة الألمان. وإن كان من محبى الاطلاع والسياحة، حبب إليه معرفة اللغة الإيطالية الحديثة للوقوف على كثير مما كتب ويكتب فى هذه اللغة الحلوة اللذيذة، وقد تفيده إحدى هذه اللغات فى ظرف قد يكون سببا لفوزه فى الحياة فوزاً مبينًا.

لهذا وذاك كله، بعد تجاربى فى الحياة، رأيت أن أوجه نظرك يا بنى إلى تعليم اللغات والعناية بأمرها، فإنك إن وفقت إلى تعلم لغات كثيرة فقد وضعت لنفسك الحجر الأساسى فى بناء صرح مجدك المستقبل.

إذا كان من حظك ألا تحتاج إلى معرفة لغة من اللغات فى سبيل تحقيق آمالك ومطامعك فى الحياة، فإنك ستجد لذة لا تدانيها لذة فى الاطلاع على ما دُوِّن من الآثار، وما وضع من الآداب والمعارف والأسرار، فى كثير من هذه اللغات الأوربية. فما ألذ الاطلاع على ما كتبه جوت وشيلر، من شعراء الألمان بلغته الأصلية، وما أحلى قراءة شكسبير وملتون وجونسن وماكولى، باللغة الإنكليزية، وما ألذ الاطلاع على أشعار دانتى باللغة الإيطالية، والاطلاع كذلك على كتابات روسو وڤولتير وهوجو وغيرهم فى اللغة الفرنسية.

وإذا اشتغلت بالتاريخ أو بالآداب أو بالسياسة أو بالحقوق أو بالفلسفة، فإنك تجد الكنوز الثمينة فى كل لغة من هاتيك اللغات، بل أنت لا تستطيع أن تكون عالما بتاريخ الأمة العربية وأصول اللغات السامية التى تتفرع منها لغتك العربية، ولا تكون واقفًا على موسوعات العلوم العربية، وما ألف فيها من الكتب والرسائل فى أيامها المشرقة الزاهرة، إلا إذا أمكنك أن تطلع على ما دَوَّنه علماء الألمان المستشرقون وغير المستشرقين، من مباحثهم العويصة فى هذا الباب.

والخلاصة يا بنى أن معرفة اللغات، التى ذكرتها لك، ستفيدك فى حالتى الطموح إلى المجد والاشتغال بالعلم، للفائدة واللذة والنبوغ؛ ولهذا سأشرح لك فى رسالتى الآتية الطريقة التى تستطيع بها أن تتعلم الكثير من هذه اللغات بالسهولة فى دور شبابك، قبل أن تستعصى عليك إذا تقدمت فى السن، وانغمست فى تيار الحياة العملية.

وأستودعك الله وأدعو لك بالفوز والفلاح . .

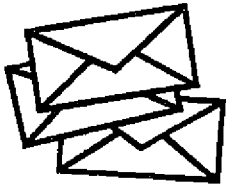

الرسالة السابعة
تعلم اللغات

ولدى العزيز:

تعلم اللغات والتمكن من أصولها ونحوها وأدبهـا، ليس مما يعتمد فيه على حدة الذهن وصفاء القريحة - وإن كان للذاكرة أثر كـبير فى تسهيل معرفة اللغات - وإنما يعتـمد فى إدراك اللغات، وحفظ كلمـاتها، وتعليق تعبيـراتها فى الذهن، للتكلم بها أو الكتابة فيها، على المجهود والمثابرة والعناية والاشتغال الصحيح بها.

اللغات لا تؤخـذ اغتصابا، ولا تتـقن لهواً وتسلية كبـعض المعارف والفنون التى تميل إليـها النفوس، وتنصـرف لها العاطفـة الفطرية، كآداب اللغـة، وقرض الشعر، أو الموسيقى والتصوير، أو العلوم التى يعتـمد فيها على التصورات والذكاء والتعـقلات، كالفلسـفة وعلوم الاجتـماع، فإنه إذا تمكنت فى النفس عـاطفة الميل لعلم من هذه العلوم، فإن العاطفة نفسها كافية للحث على مداومة البحث، لما فيه من اللذة، حتى لقد يكون الاشـتغال بها لهواً وتسلية إلى أن يجـد الإنسان نفسه، فى كثير من الأحوال، ملمّا بأطراف هاتيك العلوم، بل مـبرزاً فيها، دون أن يشعر بمجهود التحصيل.

أما تعلم اللغات فيحتاج إلى تعب وعناء فى زمن التعلم، فلا يتمكن طالب من التمكن من لغـة، إذا هو لم ينصرف إليها بقلبـه ويجعل التمكن من ناصيـتها نصب عينه فـيبـدأ أولا بدرس نحوها ووضع أساس ذلك نقـشًا كنقش الحـجر فى ذهنه، ثم يشتـغل بمطالعات فى كـتبهـا وتقييـد كل عبارة من عـباراتها البليـغة أو تعبيراتها المألوفـة، أو أمثالها المضروبة، فى مذكرة صغيرة يحفـظها فى جيبه ليداوم الاطلاع عليها، والرجوع إليها، فى كل وقت، سواء فى الدرس أو فى زمن النزهة أو فى السفر أو فى الإقامة.

قلت فى رسالتى الماضية إننى أريد أن أرسم لك الخطة التى يجب أن تختطها للتمكن من تعلم اللغات الكثيرة التى أشرت إليها، وبرهنت لك على أنها ضرورية لك للفوز فى مضمار الحياة المصرية المستقبلة. والآن أنا عامل بذلك فأقول:

ستبدأ بتعلم اللغتين الأساسيتين العربية والإنكليزية فى مدرسة تمكنك من كلتيهما أحسن التمكين فى وقت واحد، فعليك إذن حين الانتقال للتعلم الإعدادى، أى حين تبدأ بتعلم اللغة الفرنسية ألا تتلقاها بتساهل وقلة اهتمام اعتماداً منك على أنها لغة ثانوية، كما كان ذلك هو شأننا فى المدارس المصرية، لما كنا نتلقى اللغة الفرنسية لغة ثانوية، بل يتحتم عليك أن تقبل على تعلم هذه اللغة بشغف واهتمام، أى أنك تتفرغ بنفسك لتلقيها وحفظ أصولها وقواعدنحوها بالعناية اللازمة، وألا تقصر اهتمامك بها على ما تتلقاه من الدروس فى المكتب فإن ذلك يكون دليلا على أنك مثل سواك لم تستفد من هذه النصيحة، ولم تتفوق على أقرانك العاديين من الطلبة بشىء، أو أنه ليس فيك أثر من نار النبوغ التى تظهر فى عيون الذين يريدون الفوز على الأقران.

واعلم، وفقك الله يا بنى، أن صعوبة اللغة الفرنسية فى مبدأ تعلمها فقط لأنها لغة ذات قواعد كثيرة وأصول متينة تظهر صعبة المراس شديدة الشكيمة، حتى إذا مارسها الطالب، وصبر صبراً جميلا على مزاولتها ومعالجة تصريف الأفعال القياسية والشاذة والضمائر الشخصية وغيرها، ودقق النظر فى توقيع تعبيراتها النحوية فى الأمثلة والتمرينات التى يضعها الأساتذة ،التى توضع عادة فى كتب النحو وغيرها، فإنه يسهل عليه كثيراً أن يتقن هذه اللغة فى مستقبل أيامه، بل إنى أؤكد لك أنك إذا استطعت أن تضع فى ذهنك أساس مبادئ النحو الفرنسية من تصريف أفعال وصحة التفريق بين المذكر والمؤنث ووضع الضمائر والظروف فى مواضعها الصحيحة، أمكنك بسهولة أن تسير فى معرفة اللغة الفرنسية كتابة وكلاما سيراً سريعًا.

وعليك فى خلال هذه الحال - أى حين تتلقى الفرنسية بمثابة لغة ثانوية - أن تكثر من الاطلاع على حكايات قصيرة وفكاهات خفيفة فى الكتب الفرنسية التى

تقع تحت نظرك، وأن تتخذ لك كراسة صغيرة «مذكرة» تقيد فيها كل عبارة تحلو لك فهما وتعبيراً وإشارة، وتقيد بجانبها معانى الكلمات التى تجدها فى تلك العبارة الحلوة بترجمتها إلى العربية أو ما يقابلها بالإنكليزية وهو أسهل. ثم لاحظ أن هذه اللغات الأوربية متقاربة جداً وفيها كلمات كثيرة متشابهة، إن لم تكن فى الفروع ففى الأصول منها، فإذا عثرت على كلمة فرنسية لم تكن تعرفها فابحث عن معناها فى معجم فرنسى إنكليزى تجد ما يقابلها بالإنكليزية، فإن لم تجد بينهما تشابها يساعدك على تعليق الكلمة الفرنسية فى ذهنك فلا تقف عند معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها بل انزل إلى أصولها ومشتقاتها فى نفس المعجم الذى تبحث فيه.

وهنا استطراد لا بأس به - ذلك هو ألا تستعمل المعجمات الصغيرة إلا مضطراً، ابحث دائماً عما تريده فى القواميس الكبرى، سواء كان ذلك فيما تبحثه عن كلمة من لغة إلى لغة أخرى أو عن لغة إلى نفسها. إذا استطعت ألا تبحث عن كلمة عربية إلا فى معجم لسان العرب فلا تبحث فى سواه. وعلى هذا القياس افعل فى الإنكليزية والفرنسية. سبب ذلك يا بنى ظاهر لمن يجرب ويقارن. لأنك تجد فى المعجمات المطولة مشتقات الكلمة، وما يتبعها من التعبيرات، ووقوع هذه الكلمة فى عبارات مشهورة لكتاب فطاحل، وفلاسفة عظام، وسياسيين مفكرين، وشعراء نابغين، وما أشبه ذلك، فتجد أنك كسبت مكسباً مزدوجاً، أولا معرفتك معنى الكلمة معرفة تثبت فى ذهنك على مرور الزمن الطويل، بما جمعته حولها من المعلومات والمشتقات والتصريفات، بحيث توجد الأسباب المساعدة للذهن على حفظ هذه الكلمة ورسوخها، بل حفرها فى الذاكرة حفراً أبديا، وثانياً تجد فيما عثرت عليه من معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها العبارات البليغة التى أشرت لك إليها، فتحفظها وتتلذذ بالاطلاع عليها، والاستشهاد بها، فيما تكتبه من الموضوعات الإنشائية أو الخطابية أو الكلامية، حتى تكون لك زينة وحلية فى حديثك مع الناس أو استشهادك بها أمام الأساتذة والأقران - ونعود إلى ما كنا فيه من البحث عن كلمة فرنسية فى معجم إنكليزى مطول فأقول: قلت لك لا تقف عند معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها بل انزل إلى أصولها ومشتقاتها، خصوصاً

إذا كنت لم تجد تشابها بين الكلمتين الفرنسية فإنك لابد أن تجد فى المشتقات، من الكلمة المشار إليها، ما يوجد التشابه المطلوب المساعد على ربط المعنيين، وإذا أردت أن أضرب لك مثلا من هذا القبيل فإنى أجد نفسى مضطرا إلى استعمال ألفاظ أفرنجية كثيرة بحيث تخرج معى هذه الرسائل عن الطريقة العلمية الى أردتها لها ولا ضرورة لضرب الأمثال فإنه تكفيك تجربة واحدة صغيرة لتصوير المراد من هذا الباب تصويراً متمكنا من نفسك.

وأعود فأنصح لك بالجلد والصبر والعناية والتأنى فى مبدأ تعلمك اللغات، فإن ما تبذله من هذا القبيل فى مبدأ حياتك، يفيدك كل الفائدة فى مستقبل أيامك، ويعلى شأنك ويرفع ذكرك، وينفعك فى أدق المواقف وأحرجها.

وأسأل الله أن يقيك المكروه ويحفظ لك صحتك، ويقوى عزيمتك.

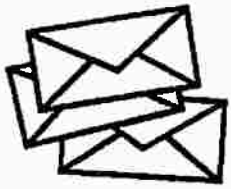

الرسالة الثانية
اللغة العربية نحواً وآداباً

ولدى العزيز:

لا يطلب منك يا بنى أن تكون رجلا لغويًا مبرزًا على غيرك فى دقائق اللغة وفنون الآداب العربية، فإن ذلك غير ميسور لك، ولا لأمثالك الذين يتربون تربية عصرية جامعة لعلوم شتى ومعارف جمة ولغات متعددة، ثم ينقطعون إلى فن من الفنون العصرية النافعة فى معترك الحياة لمن يريد أن يكون مثلك من رجال النهضة العلمية العصرية، ورجال الظهور فى الحياة الدنيا.

أقول: إن ذلك غير ميسور لك للأسباب التى بينتها بإيجاد فيما تقدم، ولأننى لا أريد لك أن تنصرف بكل مجهوداتك للاقتصار على اللغة العربية لتكون من أعلامها الذين يشار إليهم بالبنان، وثقاتها الذين يرجع إليهم فى الدرس والتعليم؛ لأن ذلك يقطع عليك سبيل الفوز على الأقران، واكتساب الثروة والجاه العريض والمجد المؤثل. اللهم إلا إذا توجهت نفسك إلى خدمة اللغة العربية، والتضحية بحياتك ومستقبلك فى هذا الباب دون سواه، فتلك غاية محمودة فى نفسها، ولكنى أصرح لك أنك تعيش يائسًا، وتأسف على مجهودات بذلتها، وأوقات قضيتها، وتندم حين لا ينفع الندم.

لكل مرشد طريقة، ولكل ذى رأى نصيحة، وربما تهيأت نفسك لما أحذرك منه، بل ربما سمعت من الناصحين عكس ما نبهتك إليه، ولكن يجب عليك أن تقف بنفسك، فى ميلها، عند حد الإدراك، بأن ما تذهب إليه من الشوق غير مخصب لحياتك، ويجب أن تعرف فوق هذا أننى أنا والدك لا أريد لك السير فى هذا الطريق الذى أعرف ما فيه من المتاعب والخسران، وأننى أحب لك من صميم فؤادى، أن تكون صالحا للعصر الجديد، والحياة الواسعة التى أرشدك إلى سبيلها.

ولتعلمن أنك مقبل على عصر جديد شديد التزاحم، وإن دائرته أوسع، مما يسمح به التخصص فى لغتنا العربية للفوز فى هذا المعترك. ومع هذا فإنى بما لى

من الشغف بلغتنا العربية وآدابها، وبما أعتقده من أن حياتنا القومية ومستقبلنا، باعتبارنا أمة تطمح للرقى والنهوض إلى مصاف الأمم المتمدينة، مرتبطة بحياة اللغة العربية وإعلاء شأنها، وتكوين آدابها، ونشر العلوم العصرية بها - أريد أن تأخذ من اللغة العربية بقسط وافر وأن تسمو فيها على أقرانك، إجادة فى الكتابة والخطابة والفصاحة وحسن البيان وسرعة البديهة وظرف التعبير ورقة الأسلوب.

وقد يخالجك الشك فى معنى ما أريد بيانه، أو يخيل لك بعض التناقض فيما عرضته عليك، إذ تقول كيف يمكن أن آخذ من اللغة العربية بقسط وافر، وأن أسمو فيها على الأقران إجادة فى الكتابة والخطابة والفصاحة وحسن البيان وسرعة البديهة وظرف التعبير ورقة الأسلوب.. إلى آخر ما تقول فى هذا الصدد - إذا أنا لم أكن لغويًا مبرزًا على غيرى فى دقائق اللغة وآدابها! أليس فى هذا شىء من التناقض؟ فأجيبك أن لا تناقض ولا تعارض إذا فقهت تماما، القصد من هذه الرسالة. ولكى أزيدك بيانًا أدخل معك فى بعض التفصيل الذى يحتمله هذا المقام فأقول:

اعلم يا بنى أن الحياة قصيرة، والعلم طويل، وأن اللغة العربية بحر خضم لا ساحل له، وأنك لو انقطعت لها طول حياتك جاعلا بغيتك النبوغ فيها دون سواها، لاقتضى ذلك أن تترك ما عداها من العلوم والمعارف اللازمة لفوزك فى الحياة. ولكى تكون لغويًا عربيًا أو شاعرًا كبيرًا، يلزمك أن تنقطع إلى اللغة العربية دون سواها، فتبدأ بحفظ القرآن الشريف والحديث وكتب اللغة المتعددة وتطلع على شعراء الجاهلية وتحفظ أشعارهم - وتتبع ذلك بشعر الطبقة الأولى من المخضرمين، وتقف على أيام العرب لتفهم بها ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة والخاصة، ثم تنقطع إلى مادة اللغة ومعجماتها بحيث لا تفوتك منها شاردة ولا واردة، وتجيد دراسة النحو والصرف والاشتقاق، وتتبع اللغة فى تطوراتها، وإن زدت فى ذلك رجعت إلى تاريخ اللغة وأصولها فى اللغات القديمة كالعربية والحميرية والنبطية والفارسية، ودون ذلك خرط القتاد، وإضاعة العمر، ولا أقول فيما لا فائدة فيه - فكل اشتغال بعمل جدى له فائدة تذكر، ولكن أقول فيما لا يؤهلك للفوز والنجاح الصحيح فى العصر الجديد الذى أنت مقبل عليه. ولكل زمان أحكام، ولكل عصر تربية واستعداد، والعالم جهاد

وجلاد، وواجب على القائد الذى يدخل فى حرب أن يعد لها من القوة والنظم العسكرية ما يوافق قوة أعدائه ونظمهم وخططهم، ونوع أسلحتهم، وإلا باء بالخيبة والخذلان، بل والموت الزؤام.

والآن أقول لك من باب زيادة البيان والإيضاح عما أريد إنه ليس من الضرورى، لمن أراد يكون أديبا طلق اللسان، فصيح الجنان، بليغ العبارة، طلى الإشارة، فى اللغة العربية، أن يتوغل فى فيافى اللغة ويبالغ فى الانكباب على دراسة نحوها وأصولها؛ لأن الإنشاء مثلا ملكة فى النفس كالشعر والغناء والتصوير، لا يبرع فيه من لم يكن مهيئًا له، وقد قال ابن خلدون فيلسوف الاجتماع، وسيد الكتاب المنشئين المفكرين، فى باب الأدب: «إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الإجادة فى فنى المنثور والمنظوم» وقال أيضًا: «إن جمع كلام العرب لا يستلزم دائمًا الاضطلاع بالأدب بل هناك استعداد فطرى يضعه الله فى صدر الإنسان، وسر فى سويداء فؤاده وعقله وقلبه، لا يعلمه إلا الذى أودعه، وإنما يذكو على المطالعة ويربو بارتياد الأشكال الملائمة».

ولكم رأيت من الكتاب المجيدين، والشعراء المبرزين، من لم ينقطع إلى اللغة ولم يكرع من مناهلها، بل من لم يجد نحوها وصرفها، فضلا عن تتبع آثار كتابها وشعرائها. فالذى أريده لك إذن هو أن تربى فيك - إذا كان فيك ميل للأدب العربى - تلك الملكة، لا بالتعمق فى اللغة، والانقطاع لها، ولكن بالتأمل فى محاسنها، واقتطاف أزهارها، وبترويض الذهن على استجلاء جمالها، وتكوين عاطفة الميل والمحبة لها، لتكون إن شاء الله كما أريده لك ملما بأطراف الأدب - رقيق الحاشية، طلى العبارة، صحيح القول، حسن الإنشاء، وإن لم تعد فى الصف الأول من صفوف الكتاب أو الشعراء، إلا إذا خصك الله بنبوغ فى ذلك يُعوض عليك ما تضيعه من الزمن النفيس فى دراسة اللغة على الطريقة التى لا أطلبها منك، كما شرحت لك.

نعم إن للغة العربية قوما يجب أن ينقطعوا لها، ويرتادوا ديارها، ويتوغلوا فى مجاهلها، ليكونوا أساتذة لها، وحجة ثقة فيها، وليزيدوا فى نموها وارتقائها، ويكونوا عمالا فى بناء قوامها، وإعادة مجدها، وربما جاء الزمن الذى تقدر فيه مجهودات مثل هؤلاء الرجال فتكافئهم الأمة على مجهودهم خير مكافأة بالتعضيد

الحسى والمعنوى، ومثل هؤلاء الرجال لا يطلب منهم إذ ذاك مثل ما يطلب منك ومن أمثالك، - رجال النهضة المقبلة - أن يتعلموا لغات شتى وأن يدرسوا العلوم العصرية التى تنهض بهم وبأمتهم، من علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ العام والخاص والعلوم الطبيعية، كالطب والكيمياء والفلك والميكانيكا والكهرباء، وما أشبه ذلك من المعارف الضرورية للعصر الحاضر.

ولا بأس من أن أستطرد فى هذا الموقف إلى نقطة معنوية ونصيحة أبوية، وهى أنك لا تتأخر فى مستقبل أيامك، إذا مهد الله لك سبيل النجاح إلى المراتب العالية، أو الثروة الطيبة، عن أن تمديد المساعدة والتنشيط، بكل ما تستطيعه من حول وقوة، لأولئك المنقطعين إلى ترقية اللغة العربية وخدمتها، فإنك تخدم بذلك نفسك وأمتك. نفسك لأنك حين تقرب منك أولئك الرجال وتمنحهم الرعاية والتنشيط، لا يقصرون فى الثناء عليك، ورفع منار فضلك، بل ربما خلدوا اسمك فى صحائف التاريخ بما يكتبونه عنك أو ينظمونه فيك، من عباراتهم السرمدية. هذا فضلا عما تكسبه من الحديث معهم، وتلقطه من درر معارفهم التى بذلوا لها مهجهم، وأسالوا عليها عرق جبينهم، فتأخذها وتحفظها عنهم بسهولة وبثمن بخس.

ومع كل ما تقدم أريد أن أشرح لك بقدر ما أستطيع، وإن كنت لست من أعيان أهل البيان، ولا من ذوى العلم الواسع فى هذا الباب، ما يجب عليك تحصيله والالتفات إليه، لتكون من ذوى البراعة وأهل المعرفة، وأبين لك أقل ما يلزمك الوقوف عليه لكى تتجمل به، ويكون لك أساس التربية الأدبية التى لا تصلح أن تكون عربيًا وابن عربى بدونها. وسأكتب لك فى هذا الباب كلمة مسهبة فى رسالتى المقبلة.

وهنا أستودعك الله وأبعث لك تحياتى القلبية، وقبلاتى الحارة والسلام.

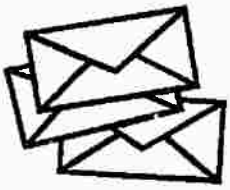

الرسالة التاسعة
تعلم اللغة العربية وآدابها

ولدى العزيز:

لا تذهبن إلى الظن بعد تلاوة رسالتى السابقة، أننى لا أحب أن تكون شاعراً مجيداً أو كاتبًا بليغًا: كلا ثم كلا! فإننى على الضد من ذلك أحب كثيراً أن تمتاز على أقرانك بكل ما تستطيع أن تمتاز به، فإن أجدت معرفة اللغات الأوربية، التى أبنت لك، فيما بعثت به لك من قبل، ضرورة إتقانها، وتخصصت فى فن من الفنون العلمية كالطب أو الهندسة أو الحقوق، وألممت إلمامًا عاما بالحركة العلمية والاجتماعية والأدبية فى العالم، وكنت فوق ذلك كاتبًا بليغًا أو شاعراً مجيداً فى لغتك، فهذا نهاية الأدب، وغاية الطلب.

ولكن إن لم تصل فى لغتك العربية إلى درجة الكاتب المجيد والشاعر المفلق، فلا أقل مطلقا من أن تكون، كما قلت لك، ملمًّا بأطراف اللغة وآدابها، تحسن الكتابة فيها، بل تجيدها للتعبير عن أغراضك فى كل مطلب، سواء كنت من رجال الحقوق، أو من رجال السياسة، أو من زعماء الأمة، فى كل طريق من طرق الزعامة. ولكى تكون كذلك، يلزمك أن تعطى اللغة العربية الحظ الأول من دراستك، فتقبل على تعلم النحو والصرف وعلوم البلاغة. وأنت الآن فى المدرسة الأمريكية التى قصدت من إرسالك لها أن تجمع بين التعليم العصرى الأوربى، وفى وقت واحد تجيد تعلم لغتك العربية. وقد اشتهرت هذه المدرسة بالعناية باللغة العربية[1] حتى لقد تخرج فيها الكثيرون من الكتاب الأدباء ورجال العلم فى السياسة والعلوم العصرية، ومنهم كثيرون من دعاة النهضة الجديدة، ورافعى أعلام اللغة، وبين أساتذتها اليوم من يشار إليهم بالبنان ويفخر بهم الشرق وتعتز اللغة،

---

(١) أذكر هنا مع الأسف الشديد أن هذا الرأى فى الكلية الأمريكية بيروت لم يعد يصدق عليها اليوم إذ يظهر أن تعليم اللغة العربية قد انحط فيها كثيراً وأن منزلتها لم تعد كما كانت قبل الحروب الأوربية الكبرى وقبل وفاة رؤسائها الأعلام وأساتذتها المتقدمين.

فلست بخائف عليك أن تهجر لغتك وتنصرف بكليتك إلى اللغات الأجنبية؛ ولهذا تجدنى على ثقة أنك فى هذا الوسط، وبجوار هؤلاء الأساتيذ، وباتباعك ما أرشدك إليه، ولما هو موروث فيك من النعرة العربية، ستتكون فيك ملكة الميل إلى لغة آبائك وأجدادك وتشتد فيك الرغبة فى الاغتراف من بحرها، ومتى وجدت هذه الرغبة فيك، فقد مهد لك السبيل.

ومن حسن حظكم فى زمانكم، كما أنه من حسن حظ اللغة العربية، أن وضعت الكتب العصرية الطيبة لتعلم اللغة ودراستها على أحدث نموذج - وإن لم تبلغ فى ذلك الشأو الذى بلغته اللغات الأوربية - حتى صار من الممكن تحصيل الكثير من مادة اللغة ونحوها وصرفها وآدابها، مع الإلمام بعلوم أخرى، ولعات شتى، فى زمن يسير، وهذا مما قضت به ضرورة الزمان وحاجة الناشئين إلى تلقى علوم جمة عصرية لازمة للفوز فى معترك الحياة، فإن الكتب التى وضعت أخيراً فى مصر وفى سوريا لتعلم مبادئ النحو والصرف وعلوم البلاغة، أغنت عن الكتب الأزهرية من نحو ألفية ابن مالك وابن عقيل وغيرها من الكتب العتيقة، قد قربت الطريق وخففت عن الناشئين صعوبة الخوض فى غمرات هاتيك الكتب المطولة التى وضعها أسلافنا. وساعد على سهولة دراسة اللغة، وسهولة الإلمام بها، وحسن الإنشاء فيها للناشئين، انتشار الصحف والمجلات والكتب.

على أننى مع ثقتى بأنك بالتفاتك وعنايتك بتعلم اللغة العربية وآدابها فى المدرسة ستحصل على الكفاية منها للحد الذى أريده لك، أرانى شديد الرغبة فى أن تمتاز على أقرانك بالتوسع فى آدابها، واستجلاء محاسنها، والأخذ منها بنصيب وافر؛ لهذا أريد أن أضع لك بيانًا لدراستك الخاصة، وأعنى بها ما هو خارج عن دائرة التعلم المدرسى فأقول:

يجب عليك أن تبدأ فى خلال أوقات فراغك من الدروس وأيام الإجازات القصيرة والطويلة، بتربية ملكة الميل إلى آداب اللغة العربية لتنمو هذه الملكة فيك مع تقدمك فى السن، وتفتح لك أزهارها فى ربيع عمرك المقبل. ولما كان يصعب على الطالب للعلوم الكثيرة العصرية فى المدارس، خصوصًا وهو غض عود

الشباب، أن يقرأ ويدرس قراءة جدية ودراسة جيدة، الكتب التى جعلها ابن خلدون أصول الأدب - وهى أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى - أقول إن صعب عليه فى طور دراسته أن يكرع من مناهل هذه الكتب فليس من المستعصى عليه، وقد نمت فيه ملكة الرغبة، وقويت فيه عاطفة الميل إلى آداب اللغة، أن يجعل لهذه الكتب الجليلة حظا من دراسته أو مجرد اطلاعه فى أوقات فراغه، ومع هذا فإنى، على قصر باعى، أضع لك خطة فى هذا الباب، أظن أنها تؤدى بك إلى الغاية المطلوبة لك وإن خالفت فيها الذين كتبوا فى هذا الباب. فأقول: إن كتب القصص والروايات والسير الخيالية أو التاريخية المسبوكة فى قالب الخيال، وحتى المشوبة منها بالخرافات، لازمة للناشئ فى حياته الأولى؛ لأنه فى قراءتها لا يشعر بأنه يتعلم، وأن دائرة خياله تتسع، بينا هو يلهو بقراءة قصة خيالية أو سيرة حماسية، مثل قصص كتاب ألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة العبسى، سيما الأخيرة فإن عباراتها فصيحة وأشعارها جيدة السبك وحماسية البيان، حقيقة أن هذه السيرة مطولة ولكنى أعرف من قرأها كلها فى مدة لا تزيد على إجازة من الإجازات المدرسية، ولا بأس من أن تتخذ للرياضة العقلية تلاوة جزء قليل منها فى أوقات الفراغ من الدراسة.

كما أن الاطلاع على الروايات التاريخية، التى وضعت أو ترجمت فى عصرنا هذا مفيد جدًا، لتنمية ملكة الإنشاء وتحسين العبارة اللفظية وتوسيع دائرة الخيال بنوع خاص، مع الحرص على أن لا يعلق بذهنك بعض التراكيب السقيمة التى سقط فيها المترجمون انحطاطا للمحافظة على الأصل.

وهذه الخطة لا تتعدى الدور الأول من زمن تعلمك ثم يلزم تركها جانبًا لما هو أمتن وأدق من كتب الأدب، فتبدأ بتلاوة كليلة ودمنة لابن المقفع. وهذا كتاب لا تقرأه كما تقرأ القصص والسير التى تقدمت الإشارة إليها، بل يلزمك أن تتمعن فى تراكيبه وأسلوب عباراته وجودة بيانه، ومتى سرى فيك الإعجاب به، فإنك ستميل من نفسك إلى معرفة هذا الكاتب الذى يحسن أن يتخذ أسلوبه مثالا يحتذى به فتشغف بالاطلاع على ما كتب، وله كتابان مطبوعان، وهما الأدب

الصغير، والأدب الكبير، وكلاهما من الكتب المعينة على ترقية ملكة الكتابة. وفى هذا الدور يحسن بك أن تطالع الكثير من الكتب الأدبية التى من نوع المختارات والمنتخبات مثل: كتاب مجانى الأدب، وخصوصًا أجزاؤه المتقدمة من الرابع إلى السابع وكلها خفيفة الروح لطيفة المأخذ، ثم تتدرج من هذا النوع إلى الكتب الجامعة لنبذ من التاريخ، وقطع من الأدب، ونتف من الفكاهة والملح، مما يغذى النفس برائع القول ويتخذ سميرًا للمتأدب، وفى مقدمة هذه الكتب كتاب العقد الفريد للأديب أبى عمر بن عبد ربه. وقد كان هذا الكتاب الجليل مشوبا بعيوب كثيرة، منها كثرة الأغلاط التى وقعت من تحريف النساخ وتكرار العبارات واشتماله فى بعض النقط على عبارات لا يليق نشرها، ولا تتفق مع آداب العصر الجديد، فقام جماعة من أئمة اللغة والأدب فى هذه الديار فاختاروا أحسنه ورتبوه وبوَّبوه فى كتاب سموه «مختار العقد» أحسن الله إليهم بقدر ما أحسنوا إلى اللغة العربية.

ومن هذا القبيل فى الدرجة الثانية كتاب الكشكول والمستظرف وفاكهة الخلفاء وأمثالها مما تمر عليه مرًا خفيفًا كما تمر بين المروج الخضراء والحدائق الغنَّاء، فإن رأيت فيها زهرة جميلة من أزهار البيان، فقف عندها وقفة المعجب بها، المستنشق لعَرْفها. ولتكن معك على الدوام كراسة صغيرة تلتقط فيها ما تستحسنه من هاتيك الأزهار اليانعة لتضمها إلى طاقة علمك، وإن كانت العبارة مطولة فلا بأس من الإشارة إلى مكانها وذكر صحيفتها وكتابها لترجع لها إذا أردت الاستشهاد بها أو محاكاة مثلها. ويجدر بك إذا تمكن منك الإعجاب بفقرة عالية المعنى، رصينة العبارة، حسنة الإشارة، ألا تكتفى بالوقوف عندها، وقفة المتفرج المستنشق، بل قف حيالها وقفة الدارس المتعلم، ولا تكتف بالنظرة الأولى، بل عاودها وردد النظر والتأمل فى حبكها، حتى تسرى فى عقلك سريان الدم فى شرايينه.

وكن فيما تقرأه فى مبدأ حياتك، وعند مطلع شمس رغبتك فى الأدب، معجبًا محبًا راضيًا من الكاتب بكل حسن، حافظًا من كتب الأدب ما تميل نفسك إلى حفظه فتتجمع عندك مادة ترجع إليها، وتأخذ منها، ثم أعد الكرة بعد زمن على ما قرأته - وقد قويت فيك ملكة التصوير، ونمت عندك روح النقد، وفكرة الإدراك والتمييز - ناقدًا منقبًا مفكرًا، فمن رأيته، من الكتاب، محسنًا فى وصف

حالات النفس، غائصًا على لآلئ الحكمة، صادقا فى التعبير، جميلا فى وصف المناظر التى يعرضها فى كتابه، فاجتهد فى احتذاء مثاله، ومكن أقواله وأسلوبه من نفسك. وستجد الكثيرين منهم مغرمًا بالمحسنات اللفظية مضحيًا، فى سبيل ضخامة اللفظ، بدقة المعنى وصدق الرواية، فاكتف من أمثال هؤلاء بأن تأخذ جانبا من جلال اللفظ، ورصانة التركيب، ومتانة الأسلوب. وإن لم تجد من هذا النوع ما هو جدير بالعناية والاحتفاظ، فمر عليه مر الكرام.

ويحسن بك يا بنى بعد دراسة علوم البلاغة، أن تطالع كتابى خزانة الأدب للحموى، والوسيلة الأدبية للمرصفى، لكى توسع دائرة التطبيقات والشواهد على قواعد تلك الفنون، ولكن على شريطة أن لا تفتتن بالبديع وما فيه من محسنات الصناعة، وتهمل المعانى الجيدة، والحكم البليغة، ويكفيك الإلمام السطحى، واقتطاف ما يميل إليه ذوقك فى باب الاستشهاد والملح الأدبية. ولتكن مطالعتك للكتب المرتبطة بعلوم البلاغة فى أوقات فراغك وأيام إجازاتك المدرسية، ولتجتهد كثيرًا فى أن تقيد فى كراسة خاصة ما يروقك من أبيات الشعر وكلمات النثر، مشفوعا كل بيت أو عبارة بما فيه أو فيها من المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه والطى والنشر وبراعة الاستهلال وهلم جرا. . ثم لا تعد، بعد هذه الفترة من المطالعة المدرسية لهاتيك الكتب، إلا مصادفة.

ثم يجب عليك أن تنتقل إلى ما هو أمتن وأعلى، فى باب الأدب وكتبه الجيدة. وذلك لا يكون إلا إذا تكونت عندك مادة وافية من اللغة، وطائفة كبيرة من معانى القول، حتى لا تتعب كثيرًا، أو تضيع وقتًا طويلا فى فهم هاتيك الكتب، وفى مقدمتها كتاب الحماسة الذى جمع فيه أبو تمام زبدة القصائد العربية البليغة، وكذلك مفضليات الضبى والمعلقات السبع. ولقد تتمكن، بعد قليل من المزاولة والجلد، من فهم معانى أهم ما فى هاتيك الكتب من الشعر البليغ مع التمكن من تفسيره.

ونصيحتى لك أمام هذه الكتب أن تكتفى منها أولا بما يسهل عليك فهمه، وما استعصى عليك فى أول الأمر فجاوزه إلى ما تستطيع، وكل بيت من الشعر تشعر أنك قد وعيته؛ ورأيت فيه حكمة جليلة فقيِّده فى كراسة خاصة ورددده فى

خلواتك وروحاتك وغـدواتك، فإن وجدت، بـعد هذه المجمـوعة الصغـيرة التى استخلصتها من ديوان الحماسة والمفضليات والمعلقات، رغبة فى نفسك للعودة إلى زيادة «مجموعتك» فافعل، وإلا فاكـتف بالقليل الطيب منها، فإن وقتك أقصر من أن يتسع لـلانكباب على هذه الكتب المطولة. وإن مـد الله فى عمـرك، وكان من حظك أن تكون صناعتك الإنشاء والأدب، ففى إمكانك أن تغترف من بحرها بقدر ما تريد.

وأمامك بعـد هذا جولة أخرى فى دواوين الشـعراء المجيدين من أمـثال أبى الطيب المتنبـى وأبى المعرى والشـريف الرضى وآبى نـواس وأبى هانئ الأندلسى، وعندى أنك لو اكتفـيت بسيد الشعراء «المتنبى»، وكـبير فلاسفة الشـعر «المعرى»، وأحسنت اختيار ما تحفظه منها لكفاك ذلك.

ولقد كـانت لى فى زمن دراستى طريقـة سهلة فى قراءة دواوين الشـعراء، وهى أنى كنت أعد لكل شـاعر دفتـرًا صغيرًا، وأنقطـع فى كل ساعة أو ساعـتين لتصفح ديوانه، فأقرأ القصيـدة مرة واحدة، وأتصور عند تلاوة كل بيت من أبياتها فـيـمـا إذا كان مـن الممكن أن أحـتـاج إلى هذا البـيت، أو ذلك المصـراع منه، للاستشـهاد به فى موضوع إنشائى، أو فى خطاب رقـيق لأديب من أصدقائى، أو فى واقعة حال أو فى إشارة إلى شىء، مما كنت أتخيله فى نفسى، فإن وجدت فى البيت أو فى أحد مصـراعيه، أو فى تعبير منه، ما أظنه ينفعنى قـيدته فى دفترى، وربما مررت على القصـيدة إن كانت غزلا أو مديحًـا أو رثاء فلا أقيد منها شـيئًا، وربما قيدت نصفها أو ربعها أو بيـتا أو بيتين منها. وكانت تكفينى نظرتان أو ثلاث فى الديوان، ولا أكـاد أفرغ منه حـتى أكون قـد حفظت عن ظهـر قلب مـا حلا لنفسـى ومالت إليه جـوانحى، وأتبع الديوان بالديوان حـتى تجمعت لـدى طائفة صالحة حفظتها واكتفيت بها.

ويلزمك بعـد هذا أن تكثر من مطالعـة نوعين من النثـر، أحدهمـا رسائل الأدباء فى المخـاطبات والمحاورات مـثل رسائل بديع الزمـان الهمـذانى وأبى بكر الخوارزمى. ولا بأس من حـفظ بعض مقتطفـات من هذا النوع لما فيه من رشـاقة الأسلوب والخفـة على الروح، مما لا تجده إلا فى النادر مما كـتبه الـعرب. ويلحق

بهذا النوع من جودة الصناعة مقامات الحريرى ومجمع البحرين وأشباههما، وفائدة هذين تفهم حسن الاستشهاد، وجمال التراكيب واستجماع كمية طيبة من أمثال العرب المعروفة التى تلزم كل كاتب وأديب فى كتابته وحديثه. ولا أنصح لك بحفظ مقامات أو رسائل كاملة من هذا النوع، لأنه لا فائدة فى ذلك، كما أن وقتك أنفس، وذاكرتك أحوج، من أن تضيع فى عمل شاق لا يفيدك بمقدار ما تبذله فيه من المجهود. ولا تنس أيضًا بعد هذا أن تقف عند كتاب «نهج البلاغة» وقفة تطيل فيها النظر إلى أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة، وحكمه الجليلة. وسياسته الرشيدة ولا تنس مطلقًا أن تستخلص منه لنفسك خلاصة وافية تجمع فيه العبارات التى تجرى مجرى الأمثال، والجمل التى تتخذ حجة فى التدليل على رأى. وتجاوز فيها عما عدا ذلك.

ويدخل فى هذا النوع ويجرى مجراه، رسائل الصابئ والشريف الرضى، والصاحب ابن عباد، والقاضى الفاضل، من ذوى المكانة العالية فى النثر فإنك تلمح من خلال كتاباتهم كنوز الحفظ، ودرر الاختيار، وجمال الصناعة مع حسن التعبير عن الأغراض، فانظر فى أقوالهم نظر المتأمل وقارن أساليبهم بأساليب غيرهم ممن أشرت إليهم.

وأما النوع الثانى فهو الأسلوب التاريخى، وهو على صنفين:

أحدهما: ما يسمى بالتاريخ الأدبى، مثل كتاب «الأغانى» الذى من فاته الاطلاع عليه فقد فاته فهم روح العرب وحياتهم فى أيام زهوهم ومجدهم، ومن هذا الصنف كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، الذى قيل إن من لم يقرأه فليس بأديب.

أما الصنف الثانى فهو أسلوب المؤرخين وفى طليعتهم، وحامل رايتهم، والمنارة العالية التى يهتدى بها كل كاتب عربى «ابن خلدون» فى مقدمته. وليس كل ما جاء فيها ينطبق على المبادئ الحديثة الصحيحة فى العمران والاجتماع، ولكنه فضلا عن كونه أول من بحث فى هذه الأغراض، فإن أسلوبه فيها البليغ الرصين، الذى يسرى مع الروح، ويدخل للنفس مع النفس. ويفتق الذهن،

ويقوى ملكة المنطق. ولا أنصح لك، إذا لم تنقطع إلى علم التاريخ، بالانكباب على كتبه المطولة، كتاريخ الطبرى أو الكامل لابن الأثير، أو مروج الذهب للمسعودى، حتى ولا تاريخ ابن خلدون نفسه، عدا مقدمته التى أشرت إليها آنفًا، وحثثتك على مطالعتها بإمعان - لأن كتب التاريخ العربى، مع جودة عباراتها فى الغالب، هى أسوأ ما وضع فى اللغة العربية على الأسلوب القديم، كما سأبين لك ذلك فى بحث خاص بدراسة هذا العلم.

إلا أنه يلزمك الوقوف على نظرات تاريخية تربط لك عصور الكتاب والشعراء وأحوال الاجتماع المحيطة بهم، والتى كانت عوامل التنشيط، أو الحركة الأدبية هى القوة الدافعة لنبوغ من نبغ. وكيف يمكنك أن تدخل فى روح المتنبى وشعره، إذا لم تعرف أحوال زمانه؟ وأخبار بنى حمدان وسيف الدولة، ثم معاملة كافور الأخشيدى لهذا الشاعر الصميم؟ كما أنه من لوازم معرفة النهضة الأدبية فى ذلك العصر، أن تعرف التنافس الذى كان بين الدول المنشقة من الدولة العباسية.

ففى دولة بنى حمدان نشأ المتنبى وأبو فراس، وكوفىء أبو الفرج الأصبهانى، وفى دولة بنى بويه رفعت راية النثر لابن العميد والصاحب ابن عباد. وإنى أنصح لك أن لا تفوتك مطالعة كتاب المستشرق الأستاذ «نيكولسن» المسمى (تاريخ العرب الأدبى) فإنه وضع على أسلوب جميل يمكنك من معرفة التاريخ بالقدر اللازم لربط عصور الكتاب والشعراء والمؤرخين والمفكرين فى اللغة العربية. وهذا الكتاب فى اللغة الإنكليزية سهل المطالعة جذاب العبارة كأنه موضوع فى قالب رواية محكمة الحلقات.

ولشد ما أحب أن أكتب لك عن أهل الأدب العصرى وما جادت به قرائحهم فى العهد الأخير فى الشرق. سواء أكانوا من كتاب الأدب المحض. أم من أرباب الأقلام فى الصحافة العربية: لأنى أعرف لبعضهم بلاغة لا تقل، بل ربما فاقت، بلاغة المتقدمين من أهل الصناعة المشهورين، ولكن رأيت أن أترك ذلك لشهوتك العقلية فى حب الاستطلاع، متى غرست فيك الرغبة فى الأدب والميل إليه.

وإن يكن ما ذكرته عن سبب امتناعى عن ذكر أسماء ومؤلفات وأعمال الكتاب العصر الأخير، الأموات منهم والأحياء، كافيا فى عدم الإشارة إليهم، إلا أن السبب الأكبر هو رغبتى فى أن لا أفتح للمناقشة بابا - إذا نشرت هذه الرسائل - لأن الكثيرين من المعاصرين الذين هم على قيد الحياة ممن يمتون إلى الأدب بصلة متينة، وشهرتهم محصورة، فى حين أن بعض الذين حازوا شهرة بعيدة، وهم حريصون على هذه الشهرة، غير جدير بالذكر فى باب الميزة. ولست ممن يقدرون لعملهم قيمة كبيرة حتى أحث ولدى على الاعتناء بما كتبوا وصنفوا.

فضلت أن أقف معك عند هذا الحد وأترك لك ارتياد مملكة الأدب العصرية، وتقدير رجالها وأعمالهم على قدر ما تحكم به لهم من المنزلة والقيمة الجديرة بالذكر والخلود. وإنى واثق أنك إذا سرت على المنهاج الذى شرحته لك فإنك، بحول الله وقوته، ستصل إلى درجة لا تحتاج معها إلى التزود من مادة كاتب عصرى، مهما علت منزلته، وغزرت مادته. وهذا كله لا يمنعنى من أن أرشدك بنفسى إلى ما لبعض كتابنا وشعرائنا العصريين من المكانة السامية والمنزلة العالية. ولا يبعد أن أرى نفسى فى زمن من الأزمان، إذا مد الله فى عمرى، راغبا فى كتابة بحث مطول عن كتاب النهضة العصرية.

وفقك الله يا بنى إلى حب الأدب العربى، وخدمة لغتك ولغة آبائك وأجدادك، ووطنك ودينك، والسلام عليك ورحمة الله.

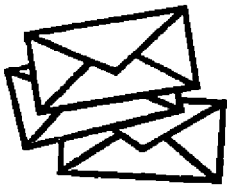

الرسالة العاشرة
اللغة الإنكليزية نحواً وآداباً

ولدى العزيز:

لا يطلب منك فى اللغة الإنكليزية، وفى جميع ما تتعلمه من اللغات الأجنبية مثل ما يطلب منك فى اللغة العربية فإن هذه لغتك الأساسية، لغة قومك وعشيرتك، لغة حديثك وكتابك، لغة أعمالك فى نهضة أمتك، وهى فوق ذلك لغة دينك وعصبتك، ولهذا توسعت لك فى شأنها وحثثتك على الإلمام بأطرافها والتبريز فيها على الأنداد والأقران وقد يطلب منك فيها أن تنشئ الرسائل، وتضع التقارير، وتكتب المذكرات وتقنن القوانين، بل قد يطلب منك إذا كانت دائرة حظك أوسع، ومستقبلك فى باب الحياة العقلية أفسح، أن تكون كاتبًا بليغًا، وشاعرًا مجيدًا، وخطيبًا فصيحا، ومدرها متفوقا، ومجادلاً قاهرًا، ومناظرًا ظافرًا، وزعيما مرشدًا، ومتكلما على البديهة مرسلا.

أما فى اللغات الأجنبية وفى نوع خاص فى لغتك الثانية بعد العربية، وأعنى بها الإنكليزية، فدائرة ما يطلب منك فى عملك محدودة. إذ لا ينتظر منك أن تكون فيها مؤلفًا ولا شاعرًا ولا خطيبًا ولا كاتبًا، وإن كان يتحتم عليك أن تكون على مقربة من ذلك بحيث تستطيع كتابة الرسائل للصحف، أو مكاتبة أهل هذه اللغة بها، أو إلقاء خطاب موجز، أو وضع تقرير أو مذكرة أو بيان مما تقتضيه مصلحة عملك، فى حياتك المستقبلة؛ فلذلك أريد فى هذه الرسالة أن أبين لك الطريق القويم لإدراك غاية ما يراد منك، وما يصح أن تتوجه إليه عزيمتك، بغير إفراط ولا تقصير.

ولقد أجملت لك فى رسالة تعلم اللغات الخطة التى يجب عليك اتباعها بوجه عام، فى طريقة دراسة اللغات الأجنبية، التى توجه إليها رغبتك، وتقضى

بمعرفتها مصلحتك، والآن أكتب لك بيانًا موجزًا فى موضوع تعلم اللغة الإنكليزية نحوًا وآدابًا - فأقول:

المدرسة التى تتعلم فيها كفيلة بدراسة مبادئ اللغة الإنكليزية نحوًا ومطالعة وآدابًا. ولها - كما لكل المدارس - نظم وخطط وكتب مدرسية تتبعها وتسلك سبيلها وتدرسها، والطالب مرغم على السير معها، فلا معنى إذن لأن أضع لك طريقة خاصة لدراسة اللغة الأجنبية، سوى ما أرشدتك إليه بوجه عام، فى رسالة تعلم اللغات. إلا أننى ألفت نظرك وأنت طالب، إلى الاعتناء التام بنحو اللغة وقواعدها، فإنه لا يتم لمتعلم معرفة لغة من اللغات الأجنبية، والتمكن منها ما لم يؤسس دراسته فيها على أساس متين من نحوها الذى يسمونه بالأجرومية، وتصريف الأفعال فى صيغ الماضى والحاضر والمستقبل والشرط والأمر وتركيب الجمل وإعرابها ومعرفة مواقع الضمائر فى صيغة الفاعل والمفعول، ومواضع حروف الجر، وما أشبه ذلك من المعارف الأولية فى النحو.

ومعروف لدى العارفين أن نحو اللغة الإنكليزية من السهولة بدرجة كبيرة إذا قيس بغيره من صعوبة النحو والصرف فى اللغات الأخرى، ومع قليل من العناية والتدقيق يمكنك فى زمن يسير أن تكون متمكنا من نحو هذه اللغة وخصوصًا مع كثرة التمرينات فى تركيب الجمل وإعرابها وتحليلها.

والذى أوجه إليه نظرك بنوع خاص فى تعلم اللغة الإنكليزية، هو جودة النطق وصحة الكتابة؛ لأن هذين أصعب ما يعترض الطالب فى دراسة هذه اللغة، ذلك لأن النطق فيها كثير الشواذ فكثيرًا ما ينطق بالحرف على غير أصله، فتنطق الألف «واوًا» والواو «ألفًا» والجيم مع الهاء فاء، كما تعرف ذلك حتى فى مبدأ تعلمك، وفى هذا تجب الدقة، وتلزم العناية، ومداومة الصبر، وحسن التقليد للمتكلمين والأساتذة، وكذلك تجد صعوبة فى صحة الكتابة لأن كثرة التماثل فى نطق حرفين يتقدم أحدهما الآخر أو يتأخر عنه، توجد الريب والخطأ ما لم تكن كثير العناية. وتذكر أن النظر إلى الكلمات مطبوعة أو مكتوبة يحفظك كثيرًا من

الوقوع فى الخطأ، لتعود النظر على رؤية الصحيح، حتى إذا أخطأت فى الكتابة تجد من نظرك ما ينبهك إلى الخطأ.

ومما يسهل عليك تعلم اللغة الإنكليزية حفظ الكثير من المفردات. واللغة الإنكليزية من أوسع لغات العالم مادة فى الألفاظ، وذلك يرجع إلى أسباب فى تاريخ تلك اللغة، ولكن لا تسلك فى ذلك طريقة جمع طائفة من الألفاظ وحفظها فى قائمة كما يفعل بعض التلاميذ، أو كما يقضى به بعض المدرسين، فإن هذه طريقة عميقة ومتعبة للغاية، وقلما يعلق بذهنك من عشرين كلمة، بعد التعب فى حفظها، وإجهاد ذاكرتك فى إمساك نصفها، وعندى أن تقف على معانى الألفاظ مرتبطة بالعبارات الواقعة فيها حتى تربط المعنى اللفظى بمجموع المعنى العام للعبارة، وتعيد تلاوة هاتيك العبارة وفهمها فتعلق بذهنك معانى ألفاظها بسهولة، فلا تذهب من ذاكرتك بعدها أبداً. وخذ لذلك مثلا:

إذا كنت تقرأ قصة صغيرة أو صحيفة من كتاب مفيد وعثرت فى تلك القصة أو فى صفحة من صفحات الكتاب على عدة كلمات لا تعرف معناها، فإما أن تسأل عنها - وهو الأسهل - المتعلم أو التلميذ المتقدم عنك ثم تكتب المعانى بقلم من رصاص على هامش الصحيفة (والأولى أن تكتبها فى دفتر صغير مشفوعة بالعبارة الواقعة فيها)، وإما أن ترجع إلى المعجم الإنكليزى العربى، أو الإنكليزى الإنكليزى، فتجد معانى كثيرة فى الغالب لتلك الكلمة، فتختار بالبداهة المعنى الموافق للعبارة التى لديك، وتستفيد فى آن واحد معانى أخرى للفظ تنفعك فى موقف آخر، وهكذا مع الممارسة وطول الزمن يتكون عندك ما يعبر عنه «بمعجمك اللفظى»، وكلما كان معجمك كبيراً، كانت معرفتك باللغة الإنكليزية أوسع وأتم.

وبعد أن تتم دراستك الأولية للنحو والإعراب وتتجمع لديك كمية مناسبة من ألفاظ اللغة ومعانيها، فابدأ بمطالعة القصص المختصرة والحكايات اللذيذة (هذا عدا ما تقرأه مع التلاميذ فى المكتب فى كتب المطالعة) ثم تتدرج من هذه إلى كتب الروايات لكى تأخذك بأسلوبها والشغف بالقصة أو الرواية، إلى الاستمرار فى

مطالعتها، فتثبت فيك ملكة التعبير وتقتبس منها التعبيرات الجيدة. ونصيحتى لك فى أول مزاولتك القراءة أن لا تتخطى عبارة دون أن تفهمها جيدًا، وكتاب تقرأه وتفهمه فهما صحيحًا فى شهر من الزمان، أنفع لك ألف مرة من عشرين كتابًا تتخطف معانيها أو موضوعاتها تخطفا.

ومما أنصح لك به هذا الدور من المطالعة، أن تقرأ لنفسك بصوت عال ليتعود لسانك على النطق بسهولة وتسمع أذنيك صوت اللغة فتألفه لسماع غيرك. ولكى تقدر على الكلام بما تعوده لسانك من القراءة.

وعليك إذا عثرت على عبارات تستلحها نفسك، ويميل إليها طبعك سواء من حكمة عالية، أو من جملة فصيحة سلسة، أن تقيدها فى دفترك وتتأنى فى كتابتها حتى ترسخ فى ذهنك، ثم تتخذها للاستشهاد أمام المعلم أو فى ورقة الامتحان شاهدًا على تعبير خاص، أو مثالا على قاعدة من الإعراب أو التحليل، أو موقع لفظ فى تعبير، فيلحظك المعلم بعين خاصة ويرى أنك من المجتهدين الذين لا يقصرون على الأمثلة الواردة فى كتب التعليم، هذا فضلا عما تكسبه من تقييد العبارات من صحة اللفظ وضبط حروفه الهجائية للإملاء وجودة المعنى وحسن السبك فى التراكيب.

والآن افرض أنك تمكنت من فهم اللغة ووصلت إلى درجة الإجادة فى كتابتها ومطالعة الكتب الجيدة فيها، فأنتقل معك إلى الكلام عن آداب هذه اللغة، وأذكر لك من الإرشادات التى رأيت بعد التجربة أنها تساعدك على زيادة التوسع فى الإنكليزية، والأخذ منها بالنصيب الوافر الذى لابد منه لمن يريد أن يكون فى صف العارفين حق المعرفة بهذه اللغة فأقول:

إن مجرد تعلم هذه اللغة الإنكليزية للاكتفاء بالكلام الصحيح، وكتابة المراسلات الشخصية، وقراءة روايات أدبية، لا يضعك مطلقًا فى صف الممتازين الذين يلجأ إليهم فى وقت الحاجة لعمل هام قد تقضى به مصلحتك فى وظيفتك،

إن كنت موظفًا، أو فى صناعتك إن كنت رجلا حرًا فى أى سبيل من سبل الحياة. وأنا إنما أريد لك الميزة على الأقران، والتقدم إلى الصف الأول فى صفوف الناجحين. هذا إن لم أطلب منك أن تكون أنت وحدك «الصف الأول»، أو تكون الرجل الذى يشار إليه بالبنان، أو كما يقول بعضهم «المنارة العالية التى يهتدى بها فى الليل، والصخرة المتينة التى ينحط عنها السيل»، وذلك لا يكون إلا إذا كنت فى كل ما تتعلم، وفى جميع ما تتوجه إليه رغبتك، وتنصرف إليه بغيتك، سباقا إلى الغايات، فإما الصدر وإما إلى القبر! وحياة الوسط بين هذين، اشتراك مع العامة، وخور فى الطبيعة. فإن لم تستطع، وليس هو بالمطلوب منك، أن تكون منشئًا بليغًا، وخطيبًا مفوهًا بالإنكليزية، فلا يصح أن تظهر منك بادرة جهل بتاريخ آداب اللغة الإنكليزية بوجه عام. أى أنه لا يليق بمن كانت تربيته فى الدرجة التى أريدها لك، أن يجهل أسماء كبار الشعراء والكتاب، ولا أهم ما كتبوه ووضعوه من المؤلفات، التى تعد عند الإنكليز فى الدرجة الأولى فى البيان والمنزلة العليا، فى فصاحة اللسان. فإن كان لا يطلب منك قرض الشعر الإنكليزى فلا مندوحة لك من الوقوف على أهم قصائد الشعراء المجيدين.

وليس من الضرورى أن تدرس بتوسع رقى اللغة الإنكليزية وتطورها فى أدوارها من عهد تشوسر - فى أول حكم الملك إدوارد الثالث، أى فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى إلى زمن شكسبير، فى النصف الأخير من القرن السادس عشر - فى عهد الملكة إليزابيث، وهو عهد ازدهار الآداب بالإنكليزية؛ إذ ظهر فى هذا العهد الممتاز أدموند سبنسر وفرانسيس باكون رافع لواء الفلسفة الحديثة والكاتب الأخلاقى العظيم. فإن العهد الأول مدته قرنان من الزمان تقريبًا «١٣٧٠ - ١٥٥٠م»، وأكبر شعرائه «تشوسر» ويسمونه «والد الشعر الإنكليزى»، وقد كان أسلوب الشعر فى ذلك العصر غامضًا، وطريقة هجاء الألفاظ قديمة تخالف ما هى عليه الآن. وكانت اللغة الإنكليزية فى مبدأ تكوينها من اللغات العديدة، كالسلتية والسكسونية واللاتينية، ومع أن تشوسر أول من قارب بشعره ونثره اللغة

الحديثة فقد كان تأثير اللغة الإيطالية فى تشوسر وكتاب ذلك العهد ظاهراً، إذ كانت مؤلفات دانتى وبترارك وبوكاتشيو أكثر الكتب تداولا بين الطبقة المهذبة من الإنكليز: حقيقة أن دانتى مات قبل مولد تشوسر بنحو إحدى عشرة، وقيل سبع عشرة سنة، ولكن بترارك وبوكاتشيو كانا على قيد الحياة، وينسب كتاب آداب اللغة الإنكليزية لأولئك المؤلفين الإيطاليين، تأثيراً كبيراً فى كتاب هذا العهد القديم، حتى لقد قالوا إن حكايات «كانتربرى» التى هى أكبر أثر لتشوسر، إنما هى تقليد لكتاب بوكاتشيو (ديكاميرونى) - أى كتاب العشرة أيام الذى جمع أو وضع فيه مائة حكاية نسبها إلى رجال ونساء فروا من فلورنسة ذعراً من طاعون سنة ١٣٨٤م وبقى أثر النفوذ الأدبى الإيطالى فى إنجلترا إلى شعراء القرن السادس عشر وتأثيره ظاهر فى شكسبير.

وأما العهد الثانى لآداب اللغة الإنكليزية الذى يحفل بدراسته دراسة جدية، فيبتدئ بشكسبير وشعره الضخم فى رواياته البالغة حد الإعجاز، وينتهى بباكون مؤسس الفلسفة الحديثة ومقالاته الحكمية. واعلم أنك إذا لم تعن بشكسبير حق العناية فى دور تعلمك الأول، فإنك لست بآخذ من اللغة الإنكليزية بنصيب وافر؛ لأن منزلة شعر شكسبير فى الإنكليزية كمنزلة القرآن الشريف فى اللغة العربية، فهو أساس البلاغة، وخزانة الحكمة.

ومع أنهم يَعدُّون أسلوب شعره قديمًا، ويعترفون أن كثيراً من كلماته قد خرجت الآن عن معانيها التى وردت بها فى شعره، فإنهم لكثرة تلاوته، والإعجاب البالغ حد الإجلال والتقديس لأشعاره وحكمه وأمثاله، قد ألفوا نغمته ورددوها، ونظقوا بلهجته وإن أنكروها؛ فلذا يلزمك يا بنى أن تعكف على قراءة روايات شكسبير، وحفظ عباراتها والقطع المختارة منها، باهتمام زائد. ولا يهولنك أمره فى أول مطالعتك له فتنفر منه أو تتهيبه، لأن صعوبة شكسبير على الأجنبى من الإنكليزية معترف بها، ولكنى أؤكد لك أن أسلوب شكسبير فى جميع رواياته واحد، فإذا أنت فهمت واحدة من رواياته، مثل رواية هاملت، أو رواية تاجر

البندقية، فهمًا صحيحا، ووعيت معانى الكلمات منفردة، والتراكيب متجمعة، فقد فتح لك الباب على مصراعيه. ورأيى أن لا تبتدئ فى روايتك الأولى من شكسبير منفردًا؛ فإن لم تطالعها قطعة قطعة مع الأستاذ فى المدرسة، فاعتمد على طالب متقدم عنك سبقت له دراسة (ولا أقول مطالعة) تلك الرواية. ولروايات شكسبير طبعات مدرسية يصحب كل رواية منها تفسير واف للفظ والمعنى، وهى مفيدة للمبتدئ فى شكسبير كثيراً، ويمكنك أيضًا قبل مطالعة الرواية أن تقرأ موضوعها فى النثر المعتاد فى كتاب «قصص لام عن روايات شكسبير»، وقد ظهرت أخيراً فى إنكلترا روايات نثرية سهلة القراءة عن كل رواية من روايات شكسبير.

والخلاصة أن كل مجهود تبذله فى فهم شكسبير حق الفهم غير ضائع، بل هو بمثابة الأساس المتين فى بناء معرفتك للغة الإنكليزية المعرفة الصحيحة التى وصفت لك الغرض منها فى مقدمة هذا الكلام.

وأما «باكون» فيكفيك الاطلاع الجيد على مقالاته البليغة أو على المختار منها وأفضلها عندى مقالاته عن الدرس والصدق والانتقام والحسد والحب والصداقة والصعر والكبر.

وأسلوب «باكون» فى المقالات ليس بالسهل لأن عباراته مع سهولتها منفردة، موجزة جداً جامعة للمعنى الكبير فى اللفظ القليل، مع بعد نظر وفلسفة فى الحكم والأغراض. ولكن مقالات باكون مع هذه الصعوبة لا تحتاج إلا إلى ممارسة بسيطة وعناية فى فهم أسلوبه حتى تسهل بعدها البقية، وأما كتبه الأخرى التى جعلت له المنزلة الأولى فى عالم الفلسفة وصيرته خالد الاسم، باعتباره واضع أساس الفلسفة الحديثة، فليست مما يدخل فى آداب اللغة والتمكن منها، وإن كانت لازمة لمن يتوسع فى دراسة الفلسفة وتاريخها وأدوار انتقالها من عالم الخيالات والتصورات العقلية، والأقيسة المنطقية، إلى عالم الحقيقة والعمل، والانتفاع بها فى رقى العلوم الطبيعية والرياضية والصناعية أيضًا.

وأما ملتون فيكفيك من شعره «مصة الوشل» إذ ليس من الضرورى مطلقا أن تقرأ كتابيه «الفردوس» و«الفردوس المكسوب»، فإنهما مطولان، وقل من يدرسهما من الإنكليز إلا من تخصص للآداب اللغوية، وإن كان يحسن بك أن تدرك الغرض من هذين المؤلفين الشعريين، وتتطلع على نتف من مختارات شعره فيهما خصوصًا ما كان منهما فى باب وصف الجنة والملائكة، ولا بأس من أن تقرأ له بإمعان قصيدتيه المعنونتين «السرور» «والتفكر»[1]. ولملتون من النثر بعض الرسائل البليغة التى يجدر بك أن تقف عليها، وهى مطبوعة فى كتاب صغير اسمه «نثر ملتون» وتكفيك منها رسالته البديعة التى موضوعها حرية الصحافة ورسالته عن «التربية».

وبعد ملتون تدخل فى كُتّاب وشعراء القرن السابع عشر، منهم من عاصر ملتون ومن لم يعاصره، وفى الأولين «دريدن»، وله من القصائد المشهورة «ماك فلكنوى» التى مطلعها.

All human things are subject to decay,

And when Fate summons, monarchs must obey.

وهى غاية فى بلاغة التقريع المؤلم، والسخرية القاتلة لخصومه السياسيين فى ذلك العهد: وله أيضا قصيدة كتبها فى ليلة واحدة عن «الموسيقى» اسمها (Alexander's Feast) ومطلعها:

"Twas at royal feast, for Persia won,

By Philip's warlike son...

وبه أيضًا قصيدة «السنة العجيبة» Annus Mirabilis وصف فيها حرب إنكلترا لهولندا وحريق لندن المشهور عام ١٦٦٦. ودريدن شاعر من شعراء العرش Poet Laureat من سنة ١٦٧٠ إلى ١٦٨٨.

---

(1) L'allegro Il Pansero

Hence, Loathed Melancholy.. ومطلع الأولى

Hence, vain deluding Joy.. ومطلع الثانية

وأحق الكُتَّاب فى القرن السابع عشر بالقراءة والتمعن والوقوف على بعض رسائله جون لوك Jihn Locke الفيلسوف، ويكفيك فى الغرض المطلوب منه مقالاته عن «المبادئ» و«الملاحظة» و«المطالعة» و«التربية».

ومما يجب أن تلاحظه فى دراستك لآداب اللغة الإنكليزية، سيما بعد وقوفك على آداب اللغة الفرنسية، كما هو محتوم عليك، تأثير الشعراء والكتاب الفرنسيين، فى الآداب الإنكليزية فى القرن الثامن عشر، حتى سمّى ذلك العصر: «عصر النفوذ الفرنسى». والسبب فى ذلك راجع إلى نقطة تاريخية لا بأس من الإشارة إليها.

أبنت لك فيما كتبته لك عن الآداب العربية ضرورة الإلمام بالتاريخ العام لسهولة تصوير الحركة الأدبية وعوامل التنشيط والمؤثرات الواقعة على نفوس الكتاب والشعراء. وقد كان القرن التالى لدريدن - (من ١٦٨٨ - إلى الثورة الفرنسية ١٧٨٩) عصر منازعات سياسية، ومناضلات حزبية، وكان الشعراء والكتاب الإنكليز ينضمون إلى الأحزاب المختلفة، ويكتبون ما يرضى الرؤساء والزعماء، وما توحى به مطامعهم الشخصية. زد على ذلك أن أنصار الملكية فى إنكلترا الذين هاجروا إلى فرنسا، بعد سقوط الملك تشارلس الأول، ثم عادوا إلى إنكلترا مع الملكية، فى أول حكم تشارلس الثانى، تشربوا روح الآداب الفرنسية فى صناعة الشعر وتنميقها، والمحسنات اللفظية وإتقانها، وانصرفوا إلى جعل الشعر واسطة لبسط الآراء الفلسفية، ووسيلة لهجو خصومهم، وانتقاد مناظريهم، حتى جاء شعراء القرن التاسع عشر، ففكوا خيال الشعر من قيوده الصناعية وتأثير «بوالو» فى قصيدته «صناعة الشعر» L'art Poetique على «بوب» فى كتابه Essay on Criticism - ظاهر لأولى المعرفة.

فى العصر الذى نحن فى صدده ظهر كثير من كبار الكتاب والشعراء مثل إسكندر بوب المتقدم ذكره، وديفو، وسويفت، وأديسون، وستيل جونسون، وجولد سميث، ودافيد هيوم، وآدم سميث، وتوماس غراى، وأدمون بور،

وجبون، وتشسترفيلد: وكل كاتب وشاعر من هؤلاء له المؤلفات المطولة، والقصائد البليغة، والحكم الجزيلة، والبيان الرائع، والأدب الغض. وإنى ذاكر لك بعض ما أظنه ضروريا لمطالعتك ودراستك، كما أننى واثق أنك ستجد فى مستقبل حياتك ميلا للاغتراف من بحرهم، والتتبع لأخبارهم.

يكفيك من «بوب» بعض شذرات من شعره تجرى مجرى الأمثال والحكم خصوصًا «رسالته عن النقد» التى قلد فيها هوارس اللاتينى وبوالو الفرنساوى، فمن ذلك قوله فيها:

Alittle learning is a dangerous things,

Drink deep, or taste not the Pierian spring.

وقوله:

Good mature and good sense must ever join,

Toierr is human, to forgive diving,

وأما ديفو «Defo» فسيبقى لديك دائمًا مؤلف رواية «روبنسون كروزو» التى يقرأها كل ناشئ فى اللغة الإنكليزية، ومثله سويفت فى «سياحات جوللفر».

وأما أديسون وستيل فأهم ما يقرأ لهما، مقالاتهما التى نشرت فى مجلتى سبكتاتور وتاتلر Spectator and Tatler وأحسن ما للأول مقالة «خيال مرزا» و«صناعة التجهم The vision of Mirza, The art of grinning» وللثانى مقالة «الهناء العائلى - Aseene of domestic filicity ومقالة On thedeath of friends عن وفاة الأصدقاء.

وأما الدكتور جونسون، زعيم الكتاب والشعراء فى القرن الثامن عشر، فهو المحور الذى يدور حوله عصره، ولابد لك أن تقرأ تاريخ حياته بقلم صديقه (بوزويل) فإنك لا تشبع من قراءتها، وهى التى توقفك تماما على الحركة الأدبية

فى ذلك العصر، ولجونسون من الشعر الحكيم قصيدتان بديعتان تقرآن بإمعان، إحداهما تسمى «لندن» والثانية «غرور المآرب الإنسانية»(١).

ولا تفوتنك مطالعة رواية «قس ويكفيلد» لجولد سميث، فهى السحر الحلال، والأسلوب الذى يسيل رقة، ويبعث فى النفس عواطف الحنان والمروءة ومكارم الأخلاق، وله من القصائد «السائح» و«القرية المهجورة»(٢) مما تجب قراءتهما وحفظ المختار منهما.

ويقرأ من كتابات دافيد هيوم، بعض رسائله الأدبية والفلسفية وهى سهلة خفيفة تبعث على التأمل وتربى ملكة التفكير، وأما توماس غراى الذى بلغ فى جودة النظم، ودقة الصناعة، نهاية النهايات، فلا تسمى عارفا باللغة الإنكليزية ما لم تحفظ له على الأقل قصيدة «مرثية فى صحن كنيسة قروية»(٣) وقصيدة «على مرأى من كلية إيتون»(٤).

ومن رجال الفصاحة النثرية والخطابية والأسلوب التاريخى فى أخريات القرن الثامن عشر، أدمون بورك، فإن لم تستطع أن تقرأ تاريخ حياته وبعض خطبه الفصيحة، فلا أقل من أن تطالع رسالته «فى الذوق» وكتابه عن الثورة الفرنسية، ومنهم (جبون) صاحب التاريخ الفذ الذى بلغ به المكانة الأولى بين مؤرخى العالم، وهو مطول فى سبعة أجزاء وموضوعه «تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية»، فإن لم تستطع أن تقرأه كله فى دراستك لعلم التاريخ، فلا أقل من مطالعة الجزء الخاص بظهور الديانة المحمدية وانتشارها وفتوحات الإسلام، ومقارنته بما درسته من هذا القبيل بلغتك العربية، وما جمعته فى خزانة عقلك من المعلومات التاريخية؛ ولهذا المؤرخ الأسلوب البليغ الذى يتمشى مع الروح، ويسرى فى النفس بخفة النسيم، ورقة الهواء العليل.

---

(1) "Vanities of Human wishes".

(2) The Traveller, The Desrted Village.

(3) Elegy written in a Country Chruch Yard.

(4) On a distant prospect of Eton College.

ولا تختم دراستك فى آداب القرن الثامن عشر حتى تتوجها بقراءة «رسائل اللورد تشسترفيلد لولده» ففيها المطرب والمعجب من طلاوة اللفظ، ورقة الأسلوب، إلى بليغ الحكمة وحسن النصيحة، مع أنه لم يكتب تلك الرسائل لتنشر بعده. وستجدنى فى بعض رسائلى إليك راجعا إلى بعض آراء اللورد تشسترفيلد.

وأما شعراء القرن التاسع عشر فقد بلغوا الشأو الأعلى فى فك الشعر من قيود الصناعة والتكلف، وفى سموه إلى الأسلوب الشعرى المعبر عن وجدانات النفس، وتصوير العواطف الإنسانية، ونبض القلوب البشرية، وزعماء النصف الأول فيه «وردثورث» و«كولردج» و«سوذى» ويكفيك من الأول مقطعاته المسماة Sonnets وتؤلف من خمسة عشر بيتا من الشعر. وأخص بالذكر منها "Upon Westminster Brifge" التى مطلعها:

Earth has not anything to show more faire,

وأخرى عن ملتون ومطلعها:

"Milton, thou shouldst be living at this hour".

وكثير من هذه المقطعات الرقيقة، لورد سورث وغيره من معاصريه وممن جاءوا بعده مثل كامبل وكيتس وشيلى وبيرن، مجموعة فى كتاب المنتخبات المسمى «الكنز الذهبى» Golden Treasury للمستر «فرنسيس تورنر بالجراف» أحد أساتذة الشعر فى جامعة أكسفورد، وفى هذا الكتاب مختار الشعر من عهد شكسبير إلى نهاية القرن التاسع عشر. ولابد لك أيضًا من قراءة قصيدة كولردج «البحار العتيق». وأما اللورد بيرون فله المقطعات الجميلة فى مجموعة قصائده المسماة «ساعات الكسل» "The hours of Idleness" وكلها خفيفة على الروح. ولا بأس من أن تقرأ له قصيدته الطويلة المسماة «سجين شيلون»، والتى كتبها بعد هجرته لإنكلترا، حيث كان عائشًا مع صديقه الشاعر شيلى. وليست هذه القصيدة مما يعد

فى الدرجة الأولى من شعره ولكنها مثال من رقى وحماسة نفسه: وإذا أردت أن تعرف مقام شعر هومير وتأثيره فى شاعر إنكليزى من شعراء الدرجة الأولى فاقرأ القطعة التى قالها «كيتس» عند أول اطلاعه على ترجمة تشابمن لشعر «هومير»، واقرأ كذلك لكيتس قصيدته البليغة التى عنوانها «مساد أجنس St. Agn's Eve». وهى طويلة فى نحو أربعمائة بيت من الشعر.

واقرأ كذلك بإمعان بل احفظ عن ظهر قلبك المرثية التى قالها شيلى فى صديقه كيتس واسمها Adonais ومطلعها:

I weep for Adonais, he is dead

وأما كُتَّاب النثر فى هذا العصر فاكتف بالقليل من روايات والترسكوت، واقرأ كذلك تاريخ حياة اللورد نلسون بقلم «سوذى» واكتف من مؤلفات كارليل بالجزء المهم من (الأبطال وعبادة الأبطال) سيما الجزء الخاص منه بالنبى محمد (ﷺ) وله كتاب آخر كتبه فى أول عمره عن حياة شيلر الشاعر الألمانى، فإنه فضلا عن كونه سهل المأخذ، يعطيك فكرة عامة عن آداب اللغة الألمانية، ويشوقك إلى التوسع فى هذا الباب. ولا يفوتنك أن تقرأ لكونسى De Quincy كتاب (اعترافات آكل الأفيون) فإن أسلوبه فيه بديع جميل. والآن أنبهك إلى أرق كتاب الإنكليز وأعلاهم كعبًا فى النثر الآخذ بمجامع القلوب، وأعنى به اللورد «ماكولى» فله المقالات الانتقادية التاريخية والأدبية وهو فى نثره كالسيل المنحدر من عل، يأخذ كل شىء فى طريقه، فلا تكاد تبدأ رسالة حتى تجد نفسك مأخوذا بقراءتها إلى أن تنتهى منها على طولها. وأفضل مقالاته - إن صح التفاضل بينها - الرسائل الآتية التى أنصح لك بقراءتها فإنها، فضلا عن جودة إنشائها الذى هو السحر الحلال، تفيدك فائدة عامة فى تقدير درجات الكتاب والشعراء ورجال السياسة الذين كتب عنهم.

فإذا أنت قرأت رسالته الأولى عن ملتون ومؤلفاته عرفت قيمة هذا الشاعر ومواضع النقد عليه، وحالة العصر الذى عاش فيه. ثم رسالته عن ماكيافلى الإيطالى مؤلف كتاب «الأمير» الذى ترجم إلى العربية أخيراً أمكنك أن تعرف حالة

إيطاليا فى الزمن الذى عاش فيه ماكيافلى وعرفت الأسباب التى حملته على وضع كتاب «الأمير» المشهور بالحث على الخداع والمكر والحيلة والدهاء فى السياسة.

ثم رسالة عن جون دريدن الشاعر الذى ذكرته لك. وفيها بحث دقيق عن المخيلة الشعرية والفنون الجميلة ونسبتها إلى رقى الأمم وتهذيبها. ثم رسالة عن علم التاريخ ونقده وهى آية الآيات، ولا غرابة فاللورد ماكولى أحسن من كتب فى التاريخ الإنكليزى، وليس من الضرورى لك أن تقرأ كتابه الذى وضعه فى ست مجلدات عن تاريخ إنكلترا إلا إذا اشتاقت نفسك إلى الوقوف على أسلوبه التاريخى، أو أردت أن تقرأ تاريخ ذلك العصر، بالتفصيل. وللورد ماكولى مقالة عن اللورد بيرون كتبها بمناسبة وضع المستر «مور» تاريخ حياة اللورد بيرون، وفيها الانتقاد المر على سلوك اللورد بيرون وتقدير مزاياه الشعرية. وله كذلك رسالات مهمة جدا عن الدكتور جونسون، وميرابو خطيب الثورة الفرنسية. ووالوبول. ووليم بت واللورد باكون. وهذه الأخيرة من أفضل ما كتب. وهى تصف لك مقام اللورد باكون فى عالم الفلسفة وتشرح لك حياته وكيف مع سمو علمه وعقله قد تلوث بقبائح لا تليق بمثله.

ورسالة عن وارن هاستنج فاتح الهند يعدها الإنكليز أحسن ما كتب اللورد ماكولى، بل أغلى الجواهر فى تاج اللغة الإنكليزية. ومنها تعرف المهم من تغلغل الإنكليز فى أحشاء البلاد الهندية وسلوك هاستنج المعيب، وحملات أدمون بورك عليه فى مجلس العموم، ولا تفوتنك مطالعة هذه الرسالة بإمعان إن لم يتيسر لك الاطلاع على الرسائل الأخرى.

وله أيضًا رسالة فذة عن فردريك الكبير إمبراطور الألمان وعلاقته بفولتير وهى من الإجادة بمكان. وله كذلك رسائل عن أديسون وكتاباته، وجولد سميث. وشعره ورواياته وكلها جديرة باطلاع من يريد أن يأخذ من اللغة الإنكليزية بقسط كبير.

ولقد أطلت لـك عن اللورد ماكولى لأننـى من المغرمين بقـراءته وعندى أنه يحسن بمن كـان ذا ميل إلى التـمكن من لغة مـا، أن يعجب، وإن شـئت فقل أن يتعشق عددًا قليـلا من كتابها فى النثر والنظم. وقد قـال أحد حكماء الإنكليز فى هذا الصدد الكلمة الآتية، التى أنقلها لك بالنص الإنكليزى:

here can be no doubt that a first - hand acquaintance, for or still better, afrienddhip with three or four of the best English writes, is worth a great deal more than a mere general survey of the whole range of our literature.

وهذه الكلمة تـصدق على دراسة ومـعرفة أية لغـة من اللغات، وبهـا أختم المقال فى هذا الباب وأدعو لك بالتوفيق والنجاح.

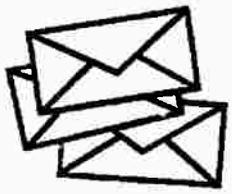

الرسالة الحادية عشرة
الترجمة

ولدى العزيز :

إننى فيما أبعث به إليك من هذه الرسائل، أضع دائمًا نصب عيني ما أؤمله لك من المستقبل الزاهر، والحياة الطيبة الحافلة بصالح الأعمال وجميل المفاخر، وكثيراً ما أخلق فى مخيلتى صورة من صورتك. فى سن أكبر من سنك الحاضر، فينشأ عندى شعور بما قد تحتاج إليه فى تلك السن من المعارف والمعلومات والاستعدادات التي تعينك على عملك. وتمهد لك سبل النجاح، والفوز على الأقران، فيشتد بى الشغف بأمرك، وأحن إلى عهد الشباب، وأذكر ما خسرته وما كسبته، وما كان من حقى أن أناله، لو لم أخطئ الطريق. .

وذو الشوق القديم وإن تسلى　　　مشوق حين يلقى العاشقينا

ولست ممن يضربون فى بيداء الأوهام، ويطيرون فى فضاء الأحلام. . فينسون ظروف بلادهم، وحالات الوسط الذى سينشأ وينمو ويجاهد فيه ولدهم، فيضعون ه من الخطط ما لا ينطبق على أحوال زمانه، وظروف مكانه، ويلقون عليه من النصائح ما لا يوافق الهيئة الاجتماعية، والحالات النفسية للأقوام الذين سيحيا ويموت بينهم؛ فلذا ستجدنى، فى كل ما أكتبه لك منصرفا إلى الوجهة العملية، فى باب تربيتك العلمية، وتهذيبك العقلى. مقتصرا على ما أعتقد أنه لازم لك لتسنم غارب المجد، واكتساب الثناء والحمد، مع هناء الخاطر، وراحة الضمير.

فأنا مقدر لحالة الوسط الذى ستنشأ فيه، وعارف بضرورة تفوقك على الأقران فى استعدادات خاصة، تقضى على معاصريك بالالتجاء إلى معارفك، والاعتماد على كفاءتك، كيفما كانت منافستهم لك. وشدة رغبتهم فى اقتناص الفوائد دونك.

فمن هذه الاستعدادات الخاصة، التى يجب أن توجه إليها عنايتك، التفوق على غيرك فى إحسان الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبالعكس، لأننا يا بنى، كما سبق لى القول. فى بلاد أحوالها استثنائية وظروفها غير عادية. إذ نحن فى دور انتقال يقضى علينا بالاعتماد على معارف أوربا من أدبية وعلمية وصناعية وتجارية، ويحتم علينا حسن التفاهم معهم، ووقف قومنا على أحوالهم، ومستحدثاتهم ومنشآتهم، وتوقفهم على حاجاتنا ورغباتنا، ووصلة هذه الحالة هى الترجمة. فالإجادة فيها ضرورية لمن يتطلب العلى وكسب الفخار والميزة على الأقران، سيما فى هذه الديار. والترجمة عمل شاق والتفوق فيها يحتاج إلى ممارسة طويلة، ودقة فى العمل، وسلامة فى الذوق، وتمكن من اللغات التى تطلب الترجمة منها وإليها.

مارست الترجمة زمنًا طويلاً وسبرت غورها، وذقت حلوها ومرها. ولو أنى رزقت بمن أنار لى الطريق بمصباح خبرته، لهان على بعض أمرها. فلعل آثار أقدامنا فى رمالها - تلك الآثار التى أرسمها لك - تهدى ضالا إلى منهج الصواب وساحل السلامة.

لكل لغة من لغات العالم مميزات عن غيرها كما تتميز الشعوب، لتماثلها هى وأخلاق المتكلمين بها، وطبائع المكونين لأساليبها، وفى كل منها تعبيرات ذات لون من ألوان المعانى، وتصوير الفكر الإنسانى، تخالف، فى بعض ظلالها وتجمع مفرداتها، ما يكون فى الأخرى، مما هو معبر عن ذلك الغرض؛ ولهذا كانت الترجمة على وجه عام بين كل لغة وأخرى محتاجة إلى مجهود ودقة وذوق، وهى بين اللغة العربية واللغات الأخرى أكثر صعوبة، وأحوج إلى مجهود أكبر - ذلك لأن اللغات الأوربية التى تطلب الترجمة منها وإليها، كالإنكليزية والفرنسية لغات آرية، لها أسلوب يخالف الأسلوب العربى السامى، ولطالما خيل لى أن منهاج التفكير، وطريقة الأقيسة العقلية، فى الكلام والتعبير عن الأغراض، يتباين كثيراً بين الشرقى والغربى، ولهذا أسباب يطول شرحها ويحتاج بيانها للخوض فى بسيكولوجيا الطبائع الشرقية والغربية.

ولكن لا مندوحة مطلقًا من القول، بأنه إن اختلفت التعبيرات، وتباينت أساليب العربية مع اللغات الأجنبية، فإن الفكر العام، والغرض المقصود من الكلام واحد، تشترك فيه كل العقول. ولهذا يتحتم على من يتصدى للترجمة الطيبة أن يبدأ أولا بالتمكن الأمكن من فهم ما يريد ترجمته، ويصح أن أقول متوسعًا فى العبارة، إن الفهم وحده لا يكفى، بل لابد من الدخول فى روح الكاتب والإحساس بمثل شعوره، والتأثر بروح غرضه، حتى يتسنى لمن يريد ترجمته إلى لغة أخرى، أن يؤدى، فيما يكتبه، الجزء الأكبر من ذلك الإحساس والشعور والغرض، إن لم يكن كله. وهذا نهاية الإتقان فى الترجمة وقل من يصل إليها مع الدقة والذمة.

وبعبارة أخرى إنك لا تجيد الترجمة وتمتاز فيها، إلا إذا كنت قد أتقنت كل الإتقان اللغة التى تترجم منها، واللغة التى تنقل إليها، وأكثر ما يعرض عليك فى مستقبلك من هذا العمل، الترجمة من اللغات الأوربية «الإنكليزية والفرنسية بنوع خاص» إلى لغتك العربية، فمتى استطعت أن تكون مجيدًا للعربية متقنًا لها واسع المادة فيها، سهلت عليك الترجمة لأن سعة مادتك، وسهولة التعبير، وسياسة الألفاظ، تلين لك حديد الترجمة حتى لا تشعر بما فيه من غضاضة. وأما إذا دعيت للترجمة من العربية إلى غيرها فأول ما يجب عليك أن تنتقل بعقلك وتصورك إلى اللغة التى تترجم لها. لا تترجم جملة فجملة، ولكن افهم الغرض الصحيح فى العربية وانقل هذا الغرض بحذافيره إلى اللغة الأخرى، بالأسلوب والتعابير والألفاظ الخاصة بها، حتى لا يشم قارؤوها، من أهل تلك اللغة، رائحة الأصل المنقول عنه.

ولشديد رغبتى فى أن أسهل لك طريق الترجمة الوعر أذكر لك بعض الإرشادات التى أظنها مفيدة فى هذا الباب بقدر ما وصلت إليه خبرتى الناقصة، وهمتى العاجزة، فأقول: إن الترجمة على أنواع شتى فما يصلح، بل وما يلزم، فى نوع من الأنواع، لا يصح ولا يتحتم فى نوع آخر.

فالترجمة إما علمية وإما أدبية، وإما إجمالية، وإما شفوية. فالترجمة العلمية هى مثلا من قبيل ترجمة كتاب فى فن من الفنون كالطب أو الهندسة أو

البيداجوچيا أو القوانين، وما شابه ذلك وجرى مجراه من علوم الاقتصاد السياسى، والسيكولوچيا «علم النفس» والسوسيولوچيا «علم الاجتماع». ومن هذا النوع أيضًا، وإن لم يسم «بالعلم»، ترجمة الأوراق السياسية، والمخاطبات الدولية، والتقارير القنصلية، والمذكرات المالية والقضائية، مما تجب فيه الدقة وملاحظة الأصل؛ لأن مجرد اختلاف لفظ عن لفظ، وإن تشابها فى المعنى، يزحزح العبارة المترجمة عن الغرض الذى وضعت له بقصد وتحديد.

ومما تجب على المترجم ملاحظته فى هذا الصدد، أنه قل أن توجد كلمتان مترادفتان من ألفاظ المعانى - لا المسميات - تؤديان معنى واحداً بالضبط، إذ لابد هناك من ظل خفيف لكل كلمة ولا سيما بارتباطها بغيرها بحيث تتغير ظلال المعانى ومرامى الأغراض الكلامية تبعًا لاختيار اللفظ المرادف، وما يجاوره من الألفاظ الأخرى؛ ولذا كانت الترجمة فى هذا النوع من أصعب الأمور، ولا تلين عريكتها للمترجم إلا بعد مزاولة طويلة، وخبرة بمعانى الأصل، الذى يترجم منه، وسعة اطلاع على نوع اللغة التى وضع فيها ذلك الأصل؛ لأن لكل فن لغة خاصة به. فلغة القوانين والأنظمة الإدارية غير لغة السياسة.. وهلم جرا. ونصيحتى لمن يزاول ترجمة من هذا القبيل أن يعالج ألفاظ اللغة التى يترجم إليها ويدقق فى اختيارها، ويقلب التراكيب المختلفة على أشكالها، حتى يتم له المراد، ويصيب شاكلة الصواب، ويقتنع ضميره، وترتاح ذمته إلى ما اختاره للتعبير عن غرض الكاتب تمامًا.

ومما يزيد صعوبة الترجمة إلى العربية، أن لغتنا، على سعتها وكثرة ألفاظها وتعدد مترادفاتها، ولين عودها للتعبير عن الأغراض المختلفة، قد وقف بها أهلها عند درجة من الجمود على القديم من أساليبها، حتى ضاقت فى ظاهرها، عن احتمال الإفصاح عن الأساليب العلمية، والإشارات الاجتماعية، والمناحى السياسية، التى اصطلح عليها كتاب العصر الحاضر. هذا فيما يختص بالتراكيب والأساليب، فكيف مع وجود النقص الظاهر فى اللغة العربية من الألفاظ العلمية التى تؤدى تماما المراد من المنشآت الحديثة والآلات العلمية والمسميات الفنية. وقد انقسم أهل العربية إلى أحزاب فى كيفية إصلاح هذا الخلل، فقال فريق بصقل

الكلمات الأعجمية وتحويرها بعض التحوير الحرفى لتناسب اللهجة العربية، والاعتماد على هذه الكلمات وإدخالها فى المعجمات كما كان يفعل أسلافنا.

وهذا رأى أنصار التقدم العصرى والنمو الطبيعى. وقال فريق بنحت أو اشتقاق أو اختيار ألفاظ عربية محضة، والاتفاق عليها بجماعة من أئمة اللغة، واتخاذ هذه الكلمات العربية الأصل للدلالة على الاصطلاحات الحديثة، وبذلك لا يدخل على اللغة غريب عنها نافر منها. وأنصار هذا الرأى هم المحافظون على القديم. ووثب فريق آخر إلى التطرف والقول بترك العربية واتخاذ لغة التكلم العصرية التى يسمونها العامية (وهذه التسمية متساهل فيها)، لغة الكتابة والعلوم والتعليم. ولكل مذهب من هذه المذاهب الثلاثة أنصار يؤيدونه، ولكل فريق حجته ونغمته، ولو كنت أكتب هذه الرسائل بقصد البحث فى موضوع مهم كهذا، لتحتم على إبداء رأيى، ولكنى إنما أكتبها بقصد إرشادك إلى الوسائل والمعارف والتربية التى تربى خلقك وتهذب نفسك وتكوّن عقلك للفوز فى معترك الحياة، إزاء ما هو كائن، لا إزاء ما يمكن، أو يحسن أن يكون، ولهذا لا أحب لك أن تدخل فى غمار مناقشات ومجادلات، لأن المهم عندى هو أن تتفوق على غيرك، بكل ما تستطيع أن تتفوق به، فإن كانت نهاية الفخر وتسنم غارب المجد، بالإجادة فى كتابة العربية الفصحى والتعبير بها عن أغراضك فخذ منها بأوفر قسط، وإن كان من الفخار فى زمانكم النبوغ فى الكتابة والترجمة بلغة التكلم العصرية، فبرز فيها على الأقران، وليكن سلاحك كسلاح أندادك، ولكل زمان أحكام، وقد قيل لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

ولنعد إلى الصنف الثانى من الترجمة وهو الترجمة الأدبية، والذى أريده من هذا النوع هو ما يكون على مثال ترجمة القصص الخيالية، والروايات الأدبية أو التاريخية، أو فصل من فصول كتاب فى الأخلاق أو التربية أو العادات أو السياحات، وما أشبه ذلك، مما يراد به ترجمة المقصود من مجموع الموضوع، دون التقيد بالنصوص أو المحافظة على معانى ألفاظ أو جمل خاصة. والمهم فى هذا النوع الاكتفاء بغرض الكاتب الأصلى فإن كان يدعو إلى فضيلة، أو يحذر من رذيلة بعبارات قوية وأسلوب منطقى، فلتكن ترجمة المراد منه، كذلك بلغة تناسب المقام وبمعان تؤدى غرض الكاتب.

ومن هذا النوع ترجمة الشعر والحكم النثرية وما يجرى مجرى ذلك من الكلام البليغ والشذرات الممتازة بدقة الصناعة، وحلاوة اللفظ، وفى هذا يتحتم عليك إن كنت تعرب شيئًا من هذا النوع أن لا تتخير الألفاظ التى تؤدى بالحرف معانى الكلمات التى تترجم عنها، فإنك إن فعلت ذلك، فلن تستطيع أن تخرج، لمن تترجم لهم، صورة تشابه الصورة الأولى، بل عليك أن تؤدى المعانى، الواردة فى الشعر أو النثر، بعبارة عربية فصيحة مطابقة فى بلاغتها العربية، بلاغة الأصل فى لغته الأجنبية. واجتهد أن تجعل له فى لغتك رنة فى الصوت، ونغمة على السمع، تشابه رنته ونغمته فى لغته، ولا يكون ذلك سهلا عليك إلا إذا كنت مالكا لناصية البيان، مع شىء من العناية والدقة فى الاختيار اللفظى. وإننى إذا كنت لا أحب أن أضرب لك الأمثال كما قلت، لأنى عندك غير مطالب بالدليل على صحة ما أقول، إلا أنى أخرج عن مألوف ذلك فأضرب لك هنا مثلاً صغيراً من تخير اللفظ ونغمة القول.

من الكلمات الشعرية لملتون قوله:

The mind in its own place,

Can make a hell of heaven or a heaven of hell.

فلو قلت «العقل فى مكانه يجعل من النار جنة أو من الجنة ناراً» فهى ترجمة صحيحة لا بأس بها، ولكن لو وضعت مكان النار «الجحيم» ومكان الجنة «النعيم» وقلت «العقل وهو فى مكانه يخلق من الجحيم نعيما، أو من النعيم جحيما»، لكانت عبارة الترجمة أفصح لفظا وأقرب إلى الأصل نغمة ورنة.

ومع هذه الترجمة أيضًا قد يشكل على بنى قومك المراد من هذا التعبير فإذا أنت خرجت عن التقيد باللفظ، وقلت «سعادة الإنسان وشقاؤه فى عقله».. «السعادة والشقاء معنيان يرجع التقدير فيهما للعقل» فإنك تكون قد ترجمت الشعر الإنجليزى وشرحته فى آن واحد.

ومن هذا النوع فى الترجمة الأدبية، ترجمة الأمثال والحكم شعراً كان أو نثراً، وترجمة الكلمات المأثورة. ففى هذه يجمل كثيراً بالمترجم الحصول على ما يقارب الأصل فى اللغة المترجم إليها فيأتى به منثوراً أو منظوما أو مأثوراً، ويكون

ذلك العمل بمثابة الحلية والتجمل فى الترجمة. مثال ذلك ترجمة العبارة الإنجليزية الآتية:

He who has a thousand friends, has not one to spare.

And he who has enemy, meets him everywhere.

فى بيت من الشعر العربى وهو:

وما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدوا واحداً لكثير

فلو ترجمت العبارة الإنجليزية هكذا مثلا «من كان له ألف صديق لا يهون عليه التفريط فى واحد منهم، ومن كان له عدو واحد يلقاه فى كل طريق» - لما كان هذا خطأ، بل هو غاية الصواب، ولكن إذا جئت بدل تلك العبارة الطويلة بذلك البيت من الشعر على نغمته وطلاوته، تكون قد برهنت على سلامة ذوق، ولطف اختيار، وسعة اطلاع؛ لأنه فى مثل هذه الترجمة الأدبية لا يطلب منك التدقيق الذى يطلب فى الترجمة العلمية أو فى المسائل السياسية والقانونية وما يشابهها.

خذ مثلا آخر، يستعمل الأجانب الكلمة اللاتينية الآتية استعمالا شائعًا وهى «Quid pro quo» وتعريبها (شىء فى مقابل شىء) (واحدة بواحدة)، (دقة بدقة) فإذا جئت لتعريبها فى خلال كلام عام، فأول ما يلزم هو تفهم المقام الذى وضعت فيه فإن كان ورودها فى مقابل الإساءة بالإساءة، فاستعمل عبارتى: «دقة بدقة»، «واحدة بواحدة»، وإن كانت فى مقام مقابلة الجميل بمثله، فيجب أن تعربها بعبارة: «ما جزاء الإحسان إلا الإحسان» أو ما شابه ذلك.

فمن هذا يتضح لك يا بنى أن الترجمة الأدبية تحتاج إلى الروية والإدراك وسلامة الذوق.

وأما الترجمة الإجمالية فهى من قبيل الملخصات إلى لغة أخرى وهى على درجات تختلف بنسبة ما يراد تلخيصه. فقد يكون المطلوب تلخيص تقرير طويل أو كتاب صغير فى رسالة موجزة، وقد يكون المطلوب وضع ملخص لا يقل فى قيمته وتأدية الغرض المقصود منه، عن الأصل المطول. وقد يكون الغرض مجرد

تأدية فكرة عامة عن بحث كبير ومطلب عويص. ففى جميع هذه الأحوال تلاحظ الرغبة والفكرة الأساسية، وعلى مقتضاها تكون الترجمة من حيث الدقة والطول والقصر، وفى كل هذا يكون المرجع للذوق وحسن الاختيار.

وبالطبع يجب أن تلاحظ فى هذه الترجمة الإجمالية الفكرة الداعية إليها، فإن كنت موظفًا مثلا أو تابعًا أو مشتركًا فى عمل عام، كعضو فى لجنة أو جمعية، وكلفت أن تضع ملخصا بالعربية لكتاب أو لتقرير باللغة الإنجليزية، ففى هذه الحال يجب عليك أن تتلقى أمر رئيسك، أو تتفق على القاعدة المطلوبة مع زملائك، حتى لا تخطئ فى تقدير المطلوب من الترجمة الإجمالية، لكى يجىء الملخص الذى تضعه باللغة العربية، على قدر المطلوب منك، لا أقل ولا أكثر.. مما يزيدك رفعة ومنزلة عند رئيسك والعاملين معك، أن تكون موضع ثقة وحسن ظن، بحيث لا يجرؤ هذا أو أولئك، على إلقاء تعليمات إليك، ويكون الأمر فى تقدير التلخيص متروكا إلى ذوقك السليم، بحيث لا يكون ثمت خلاف فى تقدير ما ارتأيت أنت تقديره.

يجب عليك يا بنى، أن تكون من المنزلة فى اللغة الأجنبية والعربية، ومن المنزلة فى حسن الإدراك وتصوير الغرض المقصود من هذا الصنف من الترجمة، بحيث يعترف لك بالأفضلية على سواك، وبالثقة التامة فى عملك وذوقك وكفاءتك. وحين تحصل على هذه الدرجة، وليس ذلك بالأمر الهين، يصبح فى مقدورك أن تملى إرادتك على رصفائك وزملائك، بل على رؤسائك أنفسهم (بأدب ولطافة). وهذه هى المنزلة التى أريدها لك وأحثك على الوصول إليها، فى مثل هذا الموقف، إذا قدر الله لك الوجود فيه.

وأما الترجمة الشفوية فهى أن يطلب منك نقل عبارة يلقيها خطيب أجنبى إلى لغة قومك، أو تكون واسطة الحديث بين جماعة من الأجانب وأبناء لغتك، وفى كلا الحالين يجب التنبه واليقظة والإسراع فى فهم المراد من اللغة الأجنبية ونقله إلى العربية أو منها، بقدر ما يمكن من الدقة والضبط وحسن التصوير. وفى هذا النوع من الترجمة لا تمكن، فى الغالب، المحافظة على الأصل أو التعريب اللفظى، ولهذا يلزمك أن تمرن نفسك على اختصار المهم من الكلام فتقول: «إن

المتكلم يريد أن يفهم سامعيه كيت وكيت» وتتحمل تبعة الرأى الذى تلقيه لأنك فى الواقع ونفس الأمر مسئول عن عـباراتك؛ لأن الطرف الذى ينقل له القول لا يفهم لغة الطرف الثانى.

أما وقـد أشرت إلى ما تتحـمله من تبعة التـرجمة، فـإننى أذكرك بأن أول واجبات المترجم الـصدق والإخلاص وتأدية واجبه بكل أمانة وذمـة. فسواء كانت الترجمة علميـة أو أدبية أو إجمالية أو شفوية فأول ما تضـعه نصب عينيك الأمانة فى النقل وأن تجعل ضمـيرك رقيبًا عليك حتى تكون شريفًـا فى عملك، وموضع ثقة فى قومك. وبهذه الصفات تنجح فى حياتك وتحسن سمعتك، ويعلو صيتك، ويرتفع ذكرك.

والله المسئول أن يسـدد خطواتك ويوفقك إلى خدمة لغتك الـعربية بما تنقله إليها من المعارف والعلوم الأجنبية. وأستودعك الله إلى رسالة أخرى.

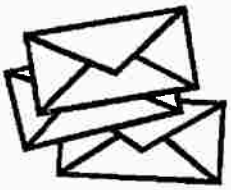

الرسالة الثانية عشرة
التـاريـخ

ولدى العزيز:

من العلوم التى أحب لك أن تميل إليها، وتنصرف بشىء من الرغبة الخالصة نحـوها، علم التـاريخ. ومـا أدرى لماذا أنا أحب لك الاشـتغـال بهـذا الفن، لا كحرفة، فـهو ليس بالصناعة - اللهم إلا إذا تقدمت الأمة المصـرية والأمم العربية بوجه عام، تقدمًا كبيرًا فى مـيدان العلوم والمعارف، بحيث يمكن للمؤرخ أن يتخذ التأليف فى هذا العلم حرفة. وفى أوربا كثـيرون من أهل الفضل يعيشون من ثمن مؤلفاتهم سواء فى علم التاريخ أو غيره.

قلت: إننى لا أدرى لماذا أحـب لك الانصـراف بشىء من الرغـبـة إلى فن التـاريخ، وربما كان مـرجع ذلك ميلى الخـاص إلى هذا الفن، أو لأننى مع هذا، أرى فيه فوائد جليلة تخفى على الكثيرين ممن لم يدرسوه أو لم يقرأوه بالروح التى يجب أن يدرس ويقرأ بها.

التاريخ من ألذ العلوم والفـنون، إذ هو قصص الأمم الغابرة. حيـاة الرجال النوابغ. أمثلـة من الفضل والفضـائل. صورة من الأخلاق البـشرية فى مـختلف العصور. موعظة الأفراد والأمم. أو كما وصفه أحد كتاب الإنجليز فقال: «التاريخ تدريس الفلسفة بضرب الأمثال»:

"History is philosophy teachiny by example".

التاريخ يا بنى من العلوم التى تبعث فينا الرغبة فى التحلى بالفضائل لما تقرأه عن عظماء الرجـال الذين امتازوا بالصفـات العالية الفاضلة مما كـان سببا لتـخليد أسمائهم ونقشها على أحجار الأبدية.

والتاريخ مـن المعارف التى تبـعث فينا، وتغـذى، عاطفة التطـلع إلى المجد وارتقاء سنام العلياء تـشبهًا بأولئك الرجال الذين نقـرأ عنهم، ونميل بجوانحنا إلى

ماضيهم. وأذكر كلمة الشاعر الأمريكى (لونجفلو) «إن تاريخ حياة الرجال العظام يؤكد لنا أن فى إمكاننا أن نجعل حياتنا عظيمة مثل حياتهم»[1]. وإنى ألفت نظرك فى هذا الصدد إلى الخطاب الثانى من خطابات اللورد «تشسترفيلد» لولده فقد ذكر له فى قيمة دراسة تاريخ الرومان والاعتناء به، ما يجدر بك مطالعته فى أصله.

والتاريخ كما يدرس فى المدارس المصرية جاف الطبع، جامد العبارة وقليل الفائدة، لأن الخطة التى جروا عليها فى وضع عصور التاريخ الكبيرة، فى كتب موجزة صغيرة، ومادة قليلة قد جعلت دراسة التاريخ لطلاب العلم فى المدارس كأنه فرع من الفروع المختلفة، وتقدير قيمته العلمية، وأثره فى التربية الأخلاقية، وأثره كذلك فى تفهم السياسة العامة، وفلسفة الاجتماع - على طريقة قائمة بذاتها. أضف إلى هذا أن التاريخ كما هو الآن فى الكتب العربية المتداولة بيننا سيئ الوضع، سيئ الأسلوب، فمنه ما هو موضوع على الطريقة القديمة من الإسناد وتبويب الحوادث بالأعوام، كتاريخ الطبرى، وابن الأثير، ومن جرى مجراهما، ومنها ما هو مشوش العبارة مملوء بالأغلاط والمبالغات والأوهام، ومنها ما خلط فيه واضعوه الأدب بالتاريخ، والحقائق بالأكاذيب، إلى غير ذلك من التطويل الممل. وإذا نظرنا إلى الكتب الحديثة المدرسية وجدنا أن أكثرها مقتضب مبوب مملوء بأسماء الملوك والحكام والأمراء وتواريخ حكمهم ومدة دولتهم، كأنما التاريخ عبارة عن نظرية هندسية، أو معادلة جبرية، مع أن التاريخ قصص وأخبار ومشاهدات وملاحظات بحيث يجب أن توجه العناية إلى تدريسه بطريقة خلابة جذابة، ولو اقتصر فى كل سنة من السنوات المدرسية على عصر من العصور، أو دولة من الدول.

وعندى بالنسبة لشخصك (يا بنى) بعض ملاحظات وآراء أحب أن أبعث بها إليك فى هذه الرسالة لعلها تفيدك، أو تؤدى إلى حث نفسك على الاغتراف من بحر هذا العلم الجليل. بحيث تكون لك منه فائدة ولذة فى آن واحد.

---

(1) Lives of great men all remind us
We can make our lives sublime,
And departing, leave behind us,
Foot prints in the sands of time.

قلت لك إن التاريخ قصص الغابرين، فهو أشبه بالروايات الخيالية التى تقرأها. وقد وصفه أحد الكتاب الإنجليز فقال: «التاريخ يبتدئ قصة وينتهى بحثا» وهذه هى كلمته الإنجليزية:

History beings in novel and ends in essay.

ومقدار الشغف بمطالعة الروايات وحب قراءة تواريخ الأبطال والرجال العظماء، يمكن أن يحولها لدراسة التاريخ. أما وضعه على طريقة الكتب المدرسية - تاريخ اليونان، تاريخ الرومان، تاريخ العرب، تاريخ المصريين، مع جداول بأسماء الملوك والأسر، وما أشبه ذلك، مضافا إلى سنى الحكم وسنى المواليد والوفيات إلى غير ذلك من البيانات، فإنه متعب جدا ولا تأتى منه فائدة مطلقا، بل ربما كان ضرره أكثر من نفعه؛ لأنه عبارة عن حشو الدماغ، وإجهاد الذاكرة بمجموعة أرقام وأسماء، لا يبقى منها بعد تمضية الامتحان لا قليل ولا كثير، وعندى أنه يجب أن يبدأ فى دراسة التاريخ بفترات من الزمن حول أسماء الرجال الذين هم سبب التاريخ أو الذين «عملوا» التاريخ كما يقول الإنجليز «Made history»، ثم تنشأ حول كل رجل من أولئك الرجال العظام من ملوك وقياصرة، وقواد، وغزاة وفاتحين، وحكام سياسيين، وهلم جرا، هالة من التاريخ العام تنمو مع الشخص، وتجمع فى جوفها كل ما يحيط به ويرتبط بمركزه وزمانه ومكانه وعمله من تواريخ البلدان الأخرى ثم أهل زمانه وأحوالهم السياسية والدينية والاجتماعية. فإذا أخذت مجموعة من عظماء الرجال مثل إسكندر المقدونى، ويوليوس قيصر، وعمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، وصلاح الدين الأيوبى، ومحمد الفاتح، ونابليون بونابرت، ومحمد على باشا... مثلا. ثم خصص لحياة كل رجل من هؤلاء الرجال دراسة خاصة مفصلة تبدأ بقصص وروايات عن نشأة أولئك الرجال، مع حكايات مختصرة عن آبائهم وقومهم وإقليمهم وأيام فتوتهم، وما قاموا به فى أدمغتهم، ثم توضع لهم صور مختلفة تمثل كل فرد منهم فى دور من أدوار حياته، وكذلك تعد خرائط جغرافية للبلاد التى نشأوا فيها، والتى قاموا بأعمالهم العظيمة فى جوانبها. فالإسكندر

المقدونى ترسم له خريطة عن اليونان وجزرها وآسيا الصغرى وبلاد العجم والهند ومصر، وعمرو بن العاص ترسم له خريطة عن جزيرة العرب ومشارف الشام ومصر، وترسم لمثل نابليون بونابرت خريطة لفرنسا وإيطاليا والنمسا والجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط يجمع مصر وسوريا. وهكذا وهكذا... ثم يحسن أن ترسم على هذه الخرائط، بخطوط حمراء أو صفراء، الطرق التى سلكوها فى غزواتهم، وبعبارة موجزة تصور لهم حياة كل رجل من أولئك الرجال العظام رواية لذيذة يقبل عليها الطلاب بشغف زائد وتعلق فى أذهاهم بحيث تكون جزءاً من حياتهم.

ثم متى رسخت عندهم تلك الفترات التاريخية، يؤخذ فى أسباب ربطها بالتاريخ العام، فتذكر أنه فى هذا الوقت الذى كان يجرى فيه كذا وكذا فى تاريخ الرجل الذى تتكلم عنه، كانت الأحوال فى الممالك الأخرى هنا، أو هناك، على شكل كذا وكذا. ولنضرب مثلا بتاريخ يوضع لحياة عمرو بن العاص وأثره فى تاريخ الإسلام والشرق.

لدراسة تاريخ هذا الرجل يجب أن يوضع بحث خاص فى نشأته الأولى فى الجاهلية. وماذا عرف عنه، ومع هذ شىء عن العرب فى الجاهلية وأشعارهم وأخلاقهم ومواسمهم وأديانهم، ثم نشأة عمرو فى الإسلام والفتوحات الإسلامية العامة حتى زمن عمر بن الخطاب، ويذكر عنه شىء عرضًا، ثم يبحث فى: «هل زار عمرو بن العاص مصر قبل فتحها؟ وكيف عرفها وماذا كانت غايته فى الزيارة الأولى؟ وما هى الأسباب التى دعته لتحريض عمر بن الخطاب على فتح مصر؟ وهل كان واقفا على حقيقة أحوال مصر السياسية والاجتماعية، والخلافات الحزبية والدينية فيها؟ ثم كيف كانت حالة مصر الجغرافية والاقتصادية فى ذلك الوقت؟» وهلم جرا، وعلى هذه الطريقة يلم الطالب بتاريخ العرب ونشأة الإسلام، والخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية وفتح مصر، وما كانت عليه الأحوال فيها من ظلم الرومان لأهلها وخلافاتهم الدينية والحزبية التى طالما كانت تؤدى إلى إراقة الدماء، وما يتبع ذلك من حال العلم فى مصر فى مدة الرومان، وأخبار مكتبة

الإسكندرية والسرابيوم، وما دار حول إحراق تلك المكتبة من المباحث والمجادلات فلا تنقضى هذه الفترة حتى يكون الطالب قد وعى تاريخ عصر من العصور التى يرتبط بها تاريخ العالم، والذى يهم الشرقى والمصرى، والمسلم بنوع خاص[1].

كل ما أوضحته لك فى الطريقة التى يحسن بها دراسة التاريخ من المثل الذى ضربته لتاريخ عمرو بن العاص يمكن بالسهولة اتباعه فى تواريخ الرجال العظام الذين ذكرت بعض أسمائهم، بل ربما كان تاريخ بعضهم أكثر جلاء ووضوحًا من تاريخ عمرو بن العاص؛ لوجود المستندات والكتب المفصلة لأعمالهم، سواء كان ذلك لقرب زمانهم كنابوليون بونابرت، أو لمصادفة وجود مؤلفات وضعت مفصلة عن زمانهم كيوليوس قيصر مثلا، ومن المباحث التاريخية التى تدخل فى هذا النوع من الأسلوب التاريخى المشوق رسائل اللورد ماكولى «Essays» عن الرجال العظام الذين كتب عنهم مثلا كلايف، ووران هاستنج، وميرابو، وفردريك الكبير وغيرهم.

وهناك طريقة أخرى فى وضع التاريخ وجعله لذيذًا مرغوبًا فى دراسته ومطالعته، وهى طريقة اختيار نوع من أنواع الحوادث مثل المواقع الفاصلة فى تاريخ الجنس البشرى، وأعنى بالمواقع الفاصلة، الوقائع الحربية التى لو تم فيها النصر للفريق الذى انهزم وفشل، دون الفريق الفائز، لتغيرت صحيفة الكون؛ وتاريخ الجنس البشرى إلى فترة طويلة من الزمن. وأضرب لك من هذا النوع مثلا، موقعة (تورس) فى فرنسا التى فاز فيها شارل مارتل على عبد الرحمن الفاتح. فلو أن المسلمين فازوا فى هذه الموقعة الفاصلة، لوقعت فرنسا تحت أقدامهم ولثبتوا دعائم المملكة الإسلامية العربية فى قلب أوربا إلى عدة قرون، ولما كان من السهل على أوربا أن تخرج الإسلام من إسبانيا فى الوقت الذى حصل فيه، وكذلك من المواقع الفاصلة فى التاريخ استيلاء محمد الثانى على الآستانة.

(١) هذه الرسالة كتبت فى النصف الأخير من سنة ١٩١٣ ويسرنى أن أذكر اليوم أننى اطلعت على كتاب جليل الفائدة عظيم القيمة فى هذه الفترة التاريخية عن تاريخ عمرو بن العاص، وقد جرى المؤلف من تلقاء نفسه على نفس الأسلوب الذى أردته لمن يضع تاريخ عمرو بن العاص؛ أما المؤلف الذى أشير إليه فهو الشاب الفاضل حسن أفندى إبراهيم حسن؛ الذى وضع أخيرًا رسالة فى تاريخ عمرو بن العاص نال بها شهادته العلمية من الجامعة المصرية، وقد طبع هذا الكتاب فى فاتحة هذا العام (١٩٢٢) فكان سرورى به عظيما. لأن مؤلفه وضعه على نحو البرنامج الذى وضعته فى هذه الرسالة فأثنى على المؤلف ثناء عاطرًا، وأرجو أن يتحفنا ببحث تاريخى مثل هذا وكذلك أرجو أن ينحو المؤلفون فى التاريخ نحوه.

فإذا وضع كتاب عربى موضوعه «المواقع الفاصلة» فيما له علاقة بالتاريخ الإسلامى، لكان ذلك من المباحث التاريخية الجليلة التى تحبب الطالب فى علم التاريخ، وتجعله ذا فائدة أدبية واجتماعية وسياسية وقومية.

ومما تجب العناية به فى دراسة التاريخ والاشتغال به، تمحيص المستندات والمصادر التى اعتمد الكاتب المؤرخ عليها، وتقدير ما لتلك المستندات والمصادر من القيمة الحقيقية. ولم أر من المؤرخين من محص مصادر مؤلفه وعرضها على القراء بنقد صحيح ليكون القارئ على بصيرة بقيمة ما يسند إلى تلك المصادر، مثل اللورد روز برى فى كتابه العظيم عن نابليون بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلين[1] فإنه بدأ بذكر المصادر التى اعتمد عليها، وهم أولئك القواد والضباط ورجال حاشية الإمبراطور المنفى، الذين كتبوا عنه ونقلوا أقواله وأحاديثه وتصريحاته وما كان بينه وبين حاكم الجزيرة من المشادة والخلاف والمشاكل. فبعد أن وصف منزلة كل كاتب منهم لدى الإمبراطور، وكيف كان من الممكن أن يكون موضع سره، وإلى أى حد يصح الاعتماد على رواية للكاتب فى موقف من المواقف، أو مسألة من المسائل، وما هو ماضى ذلك الكاتب وما هى صفاته وأخلاقه، وما هى آراؤه السياسية والحزبية، كيفما تقدر قيمة الثقة التى يحق له التمتع بها. وعلى هذه الطريقة وضع اللورد روزبرى قاعدة جديدة فى كتابة التاريخ. وقد عولت إن شاء الله أن أسلك هذه الطريقة فى مقدمة الكتاب الذى وضعته عن تاريخ الحملة الفرنسية ونابليون فى مصر، إذ يتحتم أن يقف القارئ على القيمة الحقيقية لأكبر المصادر العربية فى تلك الفترة التاريخية وهو كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، وإلى أى حد تمكن الثقة بروايته، وكيف كانت علاقة ذلك المؤرخ بالمماليك أولا وبالفرنسيين ثانيًا، وما هى منزلته فى درجة التحقيق وصدق الرواية، وما يصح الاعتماد فيه على قوله، وما لا يصح منه فى الظروف المختلفة، ثم مقارنة أقوال ذلك المصدر العربى، بالمصدر العربى الآخر، وهو رسالة المعلم نقولا الترك وما الفارق بينهما من وجهة نظر الشيخ الأزهرى المسلم، والمسيحى اللبنانى، إلى تلك الحوادث والحالة السياسية، ويتبع ذلك مقابلة هذين المصدرين العربيين بالمصادر الفرنسية رسمية وغير رسمية.

---

(1) Napoleon - The Last Phase.

وعندى أنه يحسن بك أن توجه عنايتك للتاريخ الحديث ففيه الفائدة وفيه اللذة العلمية لأن مصادره أقرب للتحقيق، وموارده أكثر انطباقا على الشؤون الحاضرة، ودروسه أشد التصاقا، وأقرب شبهًا، بما يحوط وسيحيط بك فى مستقبل أيامك من الحوادث والظروف والمناسبات السياسية والاجتماعية؛ لهذا أحثك على زيادة الاطلاع على المؤلفات فى التاريخ الحديث، ولكن لا يمنعك ذلك من الإلمام الصحيح بالمهم من التاريخ القديم.

واعلم أن فن التاريخ ليس قاصرًا على التاريخ السياسى والحربى للأمم وأعنى بذلك تاريخ ملوكها وأمرائها وأحزابها وحروبها وغزواتها، بل هناك ما هو أهم من هذا، وهو تاريخ نموها وارتقائها وتكوينها، ورقى آدابها وعلومها، وأحسن ما يقال فى هذا الصدد ما كتبه المؤرخ الجليل نابغة النوابغ فى هذا المضمار، وهو هنرى توماس باكل (Henry Thomas Buckle) فى كتابه المشهور فى عالم الأدب والتاريخ والسياسة، واسمه (تاريخ المدينة)[1] ففى هذه المقدمة ذكر هذا المؤلف العظيم أن المصادر التاريخية لأخبار الأمم من حربية وسياسية واجتماعية، كثيرة متعددة واسعة، وفيها ما هو مرتب منظم، ولكن النظر إليها من جهة رقى الإنسان، وارتقاء الجنس البشرى، ونهضة الشعوب واعتلائها، وتدهور الأمم وسقوطها، لم يوفه المؤرخون حقه.

ففن التاريخ إذن ليس مجرد أخبار وقصص ومستندات وروايات، بل هو بحث فنى منطقى يجب أن يكون المتعرض للتأليف فيه غزير المادة والاطلاع، لا على كتب التاريخ ومصادر الأخبار المتنوعة فحسب، بل لابد له من معرفة العلوم الأدبية والفلسفية والاجتماعية والطبيعية، لتصوير حال الأمم التى يكتب عنها، وعلاقتها بالظروف والأخلاق والآداب، بل والمحيطات الطبيعية بها من جو حار أو بارد أو معتدل، ومن أنهار ووديان وجبال وهضاب، فإن لكل هذه الأمور الطبيعية تأثيرًا عظيمًا فى أعمال الأمم وأفكارها ومعتقداتها.

واعلم يا بنى أن هناك فنونًا تاريخية لعدة فروع من المعارف الإنسانية فللآداب القومية تاريخ، وللأديان تاريخ، وللعلوم الطبيعية تاريخ، وللاستكشافات

---

(1) History of Civlisation.

والمخترعات تاريخ، وللتشريع والقوانين الوضعية تاريخ، وللفلسفة تاريخ، وهلم جرا. وفى هذه المباحث العويصة كتب ممتعة باللغات الأوربية، وإنى واثق أنه متى ارتقت مداركك، وشغفت نفسك بحب التثقيف والتهذيب، فإنك ستقبل على دراسة هذه المباحث العويصة اللذيذة، وسأكتب لك فى رسالة أخرى عن ضرورة الانكباب على العلم والاطلاع بعد خروجك من المدرسة.

وكنت أحب أن أذكر لك شيئًا عن الكتب التاريخية التى أرجو أن لا يفوتك الاطلاع عليها، مثل ما كتبه ابن خلدون وابن مسكويه، وجبون، وماكولى، ولكنى رأيت أن أترك هذا لذوقك وتقديرك وربما لاحت لى فرصة أخرى فأكتب لك عن الكتب التاريخية الجليلة، الشأن، وقد يكون هذا فى الوقت الذى أتأكد فيه من ميلك إلى هذا الفن الجليل.

وأسأل الله أن يمتعك بالصحة والعافية، ويمتعنى برؤيتك رجلا كاملا فاضلا، يفخر بك أبوك، كما يفخر بك وطنك. وسأكتب لك قريبًا.

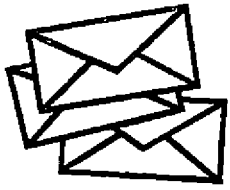

الرسالة الثالثة عشرة
العلوم الطبيعية

ولدى العزيز:

لم أكتب لك شيئًا عن أهم العلوم وأنفعها فى الحياة، وأعنى بها العلوم الطبيعية التى تطلق عليها كلمة (Science) باللغات الأجنبية. هذه هى العلوم التى يدور عليها اليوم محور العالم أجمع، وهى العلوم التى حلت فى المنزلة الأولى، وأصبح كل ما سواها من المعارف فى الدرجة الثانية بلا نزاع. والدليل على ذلك أن المعارف والعلوم الأدبية كادت تقف، إن لم تكن قد وقفت فعلا، على حين أن هذه العلوم الطبيعية آخذة فى التقدم والارتقاء، ولا تزال سائرة فى طريق النماء. وليس من المعقول أنها ستقف عند حد، لأن الطبيعة لا حد لها. ولا نهاية لأسرارها؛ فلذلك ألفت نظرك بنوع خاص إلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية وكل ما يتفرع منها، وما ينتسب إليها.

أما العلوم الطبيعية التى أذكر أننا درسناها فى المدارس المصرية فهى علم الطبيعة «Physics»، وعلم الكيمياء «Chemistry»، وعلم النباتات «Botany»، وشىء من علم الصحة «Hygiene»، ولكن العلوم الطبيعية ليست مقصورة على هذه، بل هى كل المعارف التى ترتبط بالطبيعة وبنظام الكون وكل ما ينطوي تحت ذلك، مثل علم الأحياء «Biology»، وعلم النفس «Psychology»، والعلوم الطبيعية على اختلاف فروعها ومسمياتها، وعلم الفلك «Astronomy»، وعلم طبقات الأرض «Geology»، وعلم الحيوان «Zoology»، وعشرات من العلوم الحديثة التى تختص بالفنون والصناعات المختلفة والأعمال المتعددة.

فنحن الآن يا بنى نعيش فى عالم كله مبنى على هذه العلوم الطبيعية فأينما كنا، وأينما وجدنا، وكيفما كان عملنا فى الحياة فلابد لنا من الحاجة إلى معرفة هذه العلوم، أو على الأقل، الوقوف على أهم النقط الأساسية فيها. فالجالس فى

عقـر الدار والراكب فى القطار، والطائر فى مطار، والفلاح فـى حقله، والراهب فى صومعته، ملتصق بالطبيعة وبالعلوم الطبـيعية، فى مأكله ومشربه وغرفة نومه، وفى حله وترحاله، وفى كل أمره وحاله. ومـن هذا تعرف ضرورة العناية بدراسة العلوم الطبيعية.

سـبق لى أن رددت لك كلمة مـشـهورة وهى: (إن الكثـيـر مما نتعلمـه فى المدارس لا يفيدنا فى حـياتنا) فكذلك الكثير الذى قلما يفـيدنا فى حياتنا الحقيـقية العملية، المرتبطة بصـحتنا وراحة أجسامنا وعقولنا ونجـاحنا فى الحياة، هو ما ليس من تلك العلوم الطبيعية التى عليها مدار الكون.

إن الإنسان يا بنى مـيال بفطرته الطبيـعية ومنصرف على مـا اعتقد - بتـأثير الوراثة عن آبائه الأولين، إلى حب الزينة والـتجمل والبـهرجـة فلذلك تراه ينسى قيمـة الشىء النافع نفعا صـحيحًا، ويهـتم بالزخرف اهتمامًـا عظيمًا، كمـا يوجه الزنجى، (كما يبـرهن بذلك الفيلسوف هربرت سبنسر) المتـوحش عنايته إلى الزينة وصبغ جسمه بألوان، ولبس القـلائد من الخرز والسبح، ووضع ريش الطيور على رأسه، ويهمل تغطية جـسمه لاتقاء حر الصيف، أو قـر الشتاء، كذلك نحن رغم مدنيتنا ورقينا وتهذيبنا، ورغم قرع ناقوس الحقـيقة فى آذاننا، نقدر الأنسجة مثلا، لا بمقدار صـفتها الواقـية لنا أو النافعة لأجـسامنا، بل بدرجة حـسن منظرها ودقة نسيـجهـا وزاهى ألوانها. وهكذا نحن مـع العلوم والمعارف، فـترانا نقـضى الجزء الأعظم من الحياة فى العناية بمعارف ومعلومات لا تفيـدنا فى حياتنا ومستلزماتها، بمقدار ما ننفقه من العمر والمجهود العقلى فيها.

ولقد ذهب الفيلسوف «سبنسر» فى هذا الموضـوع إلى أن أكثر ما نتعلمه من علوم اللغات والأدب والتاريخ والرياضيات هو مـن قبيل الزينة والتجمل، فى حين أن حاجتنا الحـقيقية، فى معـترك الحياة، تحتم علينا أن نجـعل التعليم الأساسى فى تربيتنا قـائما على العلوم الطبـيعيـة، ولهذا الحكيم العظيم آراء هى منتـهى الحكمة وغاية الصواب، فى هذا الباب. وإنى لذلك أحـثك على قراءتها وتمعن المراد منها فى كتابه المعنون (التربية).

إذا وعيت يا بنى كلمة هذا الفيلسوف التى يقول فيها: «تجد أحدهم يخجل إذا أخطأ فى نطق لفظة من أسماء أساطير قدماء اليونان أو الرومان ثم هو لا يظهر شيئًا من الخجل أو الأسف، إذا صرح واعترف بأنه يجهل عمل الجهاز الهضمى مثلا، أو مقياس حركة النبض، أو كيفية انتفاخ الرئتين، فما أفظع تقديم الزخرف فى تربيتنا على المنفعة الحقيقية».

ومن قوله فى فضل العلوم الطبيعية على سواها: «أطرحت المدارس أغلب العلوم التى هى ألصق المعارف بأعمال الحياة. وليس لتعليم المدارس أدنى فضل فى تلك العلوم التى أمكننا بواسطتها تذليل الطبيعة واستخدامها حتى أصبح العامل الحقير يتمتع بما لم ينله أعاظم الملوك فى الأزمان الأولى، كالنور الكهربائى، والسكة الحديدية، والترام، والسيارات، والاحتياطيات الصحية مثلا».

وسترى فى كتاب هذا العالم الكبير أنه جعل العلوم الطبيعية أساس كل تربية وتعليم، وأقام الحجة الناصعة، على أن المهندس والمصور والشاعر والكاتب والمشرع يكون أكثر دراية بفنه، وأقرب للتفوق فيه، إذا هو درس العلوم الطبيعية، ووقف وقوفًا تامًا على جواهر هاتيك العلوم المختلفة، مما يرتبط بفنه، ومما لا يرتبط به.

وإنى يا بنى أريد أن أبين لك قيمة العلوم الطبيعية لكى تنصرف إليها بكل ما أوتيت من ذكاء ونشاط. وأنى أتشدد فى هذه النقطة لأنى أعلم أننا فى المدارس لم نكن نعير العلوم الطبيعية مثل الاهتمام الذى كنا نوجهه إلى دراسة الآداب، وما فيها من لذة عقلية، ومباحثات ومجادلات أدبية وفكاهية.

فلكى أبين لك قيمة تلك العلوم أرجع إلى رأى سبنسر فى بيان درجات العلوم المختلفة من وجهة فائدتها للإنسان فى حياته، فقد قال ذلك الفيلسوف المفكر العظيم، إن مساعى الإنسان نحو إدراك العلوم يجب أن تسلك الترتيب الطبعى لمنفعته، على النمط الآتى:

أولا: العلوم التى تعين الإنسان على المحافظة على حياته ووقايتها من الأمراض.

ثانيا: العلوم التى تساعد على صيانة النفس بواسطة إحراز المعاش.

ثالثاً: العلوم التى تعين على تربية الأطفال تربية صحيحة نافعة لأبدانهم.

رابعًا: العلوم التى تؤهل المرء لأن يكون عضواً عاملا فى الهيئة الاجتماعية.

خامسًا: العلوم التى تزيد من رفاهية الإنسان.

فأنت ترى يا بنى أن هذا البيان الصادق للعلوم والمعارف، وهو قول حكيم مخلص فى حبه خدمة الجنس البشرى، قد جعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى بلا نزاع. فالمحافظة على الحياة، وحفظ الصحة، ووقاية الإنسان من الأمراض القاتلة والأوبئة الفاتكة، وتربية الأولاد، ورفاهية بنى الإنسان تحتاج فى مقدمة كل شىء إلى معرفة هاتيك العلوم الطبيعية؛ كالطب والجراحة، وعلم الأدوية، والكيمياء، والطبيعية وعلوم الكهرباء، والهواء والماء وما فى جوف الأرض من معادن وعناصر. ولا سعادة للإنسان، فى هذا الزمان، بل ولا تحسن المعيشة فوق الكرة الأرضية، إلا بالوقوف على هاتيك العلوم الطبيعية.

نحن يا بنى نعيش فى حياة مرتبطة بالطبيعة قائمة على أساس مبدأ تنازع البقاء، وبقاء الأصلح - الأصلح، لا بالجسم فقط، بل الأصلح فى الجسم والعقل، وإذا لم يكن من حظنا الحصول على تلك المعارف التى هى سلاح الأفراد والجماعات فى هذا الجهاد الدنيوى، فلا أمل لنا فى الفوز بحال من الأحوال.

ثم إنك تفهم بالطبع أن توجيه عنايتك للعلوم الطبيعية فى أثناء الدراسة التجهيزية (أى التى تتجهز بها لاختيار فن من الفنون) يجب أن يكون ملاحظًا فيه ميلك إلى الفن الذى تريد أن تتخذه حرفة لحياتك العملية، فإذا كانت وجهتك الاشتغال بالأدبيات، كأن تكون صحفيا أو محرراً رسميا، أو بالقانون فى المحاماة أو القضاء، أو بأية حرفة لها اتصال واهتمام باللغة والأدب، فلا يتحتم عليك أن تجعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى، اللهم إلا بقدر ما يلزم منها فى المعلومات، التى لا غنى عنها لإنسان متعلم يفهم المعيشة ويريد أن يحيا حياة طيبة، سواء من أصول الطبيعية وعلوم الصحة والمعلومات الطبية الضرورية، وبعض المعارف الطبيعية عن النبات والحيوان والإقليم والجو، والماء والهواء، وما أشبه ذلك.

وأما إذا كانت وجهتك الاشتغال بالطب - وذلك ما سأكتب لك عنه عندما يحين الوقت للنظر فى أمر مستقبلك واختيار حرفتك - فيجب عليك أن توجه كل مجهودك، وميلك العقلى، وحبك العلمى، لجميع هاتيك العلوم الطبيعية، فيكون إقبالك على الكيمياء والطبيعة وتجاربهما فى المعمل المدرسى عظيما، ومصحوبا بالشغف والرغبة الصحيحة.

ولتكن عنايتك بدراسة العلوم الطبيعية مقرونة بحب الاستطلاع ورغبة الوقوف الصحيح على أسرار الطبيعة وجلالها، وتقديس خالقها وموجدها. وليس مما يحتاج إلى دليل، إن العلوم الطبيعية ليست كالعلوم اللغوية والأدبية والتاريخية التى تقبل الجدل والمناقشة، ويمكن أن تكون سليمة وصحيحة على شكلين وفى روايتين مثلا، لأن العلوم الطبيعية تقوم على مبادئ ثابتة، وتجارب صحيحة، وأسس وطيدة ليس فيها للخيال ولا للنظريات أثر، اللهم إلا بقدر ما يفرض من الفروض توصلا إلى نتيجة تقوم عليها البراهين المحسوسة. وللطبيعة أسرار لا تفنى فهى تكشف كل يوم القناع عن شىء من تلك الأسرار. والذين يرفعون ذلك القناع ويخدمون الجنس البشرى، ويخففون مصاعب الإنسان ومتاعبه فى هذه الحياة، هم أولئك العلماء الأعلام المشتغلون بالعلوم الطبيعية والاستكشافات العلمية.

ولقد تقدمت العلوم الطبيعية فى أوربا منذ بدء النهضة العلمية الحديثة (Renaissance) لا سيما بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادى، تقدمًا مطردًا رغم الاضطهادات الشديدة التى كان يلاقيها أولئك الذين كشفت الطبيعة عن بصائرهم فهدتهم إلى نور الحقيقة فساروا فى طريقهم لا تصدهم عنه محاكم التفتيش ولا حرمان البابوات إياهم، ولا ماكانوا يلاقونه من عذاب وآلام، وجاء «باكون» بطرقه الاختبارية فى الفلسفة و«نيوتن» الذى فتح الله بصيرته لقاعدة الجاذبية، و«ديكرت» الذى شاد للعلم أسسًا جديدة و«لبنز» العالم الفيلسوف، و«لوك وهيوم» اللذان أشرت إليهما فى رسالتى لك عن آداب اللغة الإنجليزية، و«سبنسر» البحاثة الاجتماعى واضع أساس فلسفة النشوء و«داروين» صاحب كتاب (أصل الأنواع)، ثم استكشف البخار والكهرباء، وثبت الصحيح من علمى الطبيعة والكيمياء. وماذا أقول لك عن القواعد العلمية الصحيحة التى وضعها «كنت»، و«لابلاس»، و«لافزيه»، و«أرنست هيكل»، و«أغوسط كنت»، أولئك هم هداة الجنس البشرى

وقادته إلى سبيل الرفاهية والسعادة، والصعود إلى معارج الملكوت الأعلى، فمتى عرفت ذلك أدركت ما للعلوم الطبيعية من القيمة والفضل والجلال، فجعلت لها المنزلة الأولى فى تربيتك الصحيحة التى لا يتحقق لك فوز بدونها.

ولطالما خلط قوم فقالوا إن الانكباب على دراسة العلوم الطبيعية والتعمق فيها يبعد الإنسان عن العقيدة الدينية، وهذا نهاية الخطأ والخطل، فإن الإنسان كلما ازداد علمًا بأسرار الطبيعة، ازداد يقينه بإجلال ذلك الموجد العظيم - سبحانه جل شأنه. وهذا داروين واضع كتاب (أصل الأنواع)[1] يقول عن نفسه: «يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به خلجة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، وتلك الأنفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادفة عمياء، لأن العماء لا يخلق نظامًا، ولا يبدع حكمة، ذلك أكبر برهان يقوم عندى على وجود الله».

وقد كتب سبنسر فصلاً ممتعًا فى علاقة العلوم الطبيعية بالاعتقاد الدينى، فى كتابه «التربية» الذى سبقت الإشارة إليه، فألفتك إليه، وأرجو أن تقرأه بدقة وإمعان.

حقيقة يا بنى إن التقاليد الدينية ورجال الدين فى عصور مختلفة وقفت فى سبيل تقدم العلوم الطبيعية وحاربت انتشار هاتيك العلوم باسم الدين ولكن ذلك ما لم يكن منشؤه الدين الصحيح بل ما دخل عليه من خرافات وآراء وما دعت إليه مصالح أولئك الذين كانوا يظنون أن سلطتهم الروحية معرضة للزوال بانتشار العلوم الطبيعية وتقدمها. وأحسن ما وضع فى باب مقاومة رجال الدين لهذا الصنف من المعارف الطبيعية، كتاب ألفه المستر (جون ويليم درابر) الأمريكى تحت عنوان تاريخ النزاع بين الدين والعلوم الطبيعية)[2].

وقد أثبت المؤلف فى فصوله الممتعة، ما كان للدين الإسلامى وحريته من الأثر الصالح فى إنارة الأذهان، وإزالة غشاوة الجهل عن العيون. على أن هذا لا

---

(١) كتاب Origin of the Species وضعه شارل روبرت داروين، وقد نقل جزءًا كبيرًا منه إلى اللغة العربية الفاضل المجتهد «إسماعيل مظهر»، فله الشكر العظيم لما قام به من الخدمة.

(2) History of the Conflict between Religion and Science.

ينفى ما حدث فى بعض عصور المدنية الإسلامية، من وقوف بعض رجال الدين عصبة فى سبيل انتشار العلوم الطبيعية، كما تثبت ذلك الاضطهادات التى لقيها فلاسفة الإسلام، وعلماؤه الأعلام، وما تعرضت له كتبهم من الإتلاف والإحراق.

وإنى لأرجو أن تبذل منتهى الهمة والعناية فى دراسة العلوم الطبيعية لأنى أميل كثيرًا إلى اتخاذك صناعة الطب حرفة لك فى مستقبل أيامك، وسأكتب لك فى هذا الموضوع كلمة فى الرسالة المقبلة لأنى أريد أن أبحث معك، فى موضوع اختيار مهنتك.

وأسأل الله تعالى أن يكلأك بعين رعايته، وأن يوفقك إلى اختيار أشرف الصناعات وأنفعها لك فى حياتك المقبلة. ولك منى التحية والسلام.

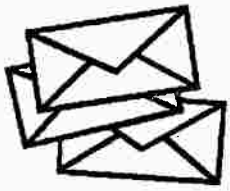

الرسالة الرابعة عشرة
لاختيار المهنة

ولدى العزيز:

أظن أن الوقت قد حان للفكر والبحث فيما تريد أن توجه إليه غايتك فى حياتك المستقبلة، وأعنى بهذا اختيار المهنة، أو العمل الذى تريد أن تتخذه وسيلة لكسب معاشك، وواسطة لإدراك مطامعك وآمالك. وهو ما يصح أن تعبر عنه بالإنجليزية The choice your future career.

يقف الإنسان يا بنى فى أوقات كثيرة من حياته، فى مواقف دقيقة، وساعات حرجة، موقف المتردد، بحيث يتوقف على اختياره وقراره، فى تلك اللحظة الخطيرة الشأن، إما فوز ونجاح، وإما فشل وخسران، وبعبارة أخرى إما حياة وإما موت؟

تلك هى الساعة التى يختار فيها الإنسان العمل الذى يريد أن يتخذه صناعة فى حياته المقبلة، بل تلك هى الساعات التى يقف فيها الإنسان فى مفترق الطرق، فإما أن تهديه فطرته، وترشده بصيرته، أو تدفعه همته، إلى الطريق التى يجد فيها الوسائل لتحقيق مطامحه وآماله، وإما أن يخطئ النظر، ويضل الطريق، ويسلك سبلا ملتوية، فيعاكسه الدهر، لسوء اختياره، فيرى نفسه غير موفق إلى تحقيق ما كان يؤمله فى حياته، بل ما هو جدير به. فعلى اختيارك، يا بنى، السبيل الذى تسلكه فى حياتك المقبلة، وعلى اختيارك نوع العمل أو المهنة، يترتب ما كتب لك فى لوحة القضاء، من فوز ونجاح ورقى وهناء، أو من تسكع أو فشل، أو همٍّ أو عناء.

فقف يوم تصل إلى ساعة الاختيار، موقف المفكر المتدبر، ولا تعتمد على رأيك وميلك وهواك، بل الجأ إلى من هم أكبر منك سنا، وأكثر تجربة فى الحياة، وخذ برأيهم، واعتمد على مشورتهم، فلن تجد فى هذا الموقف من يخفى عنك الحقيقة.

قلت لك لا تعتمد على رأيك وميلك وهواك، لأنى تعبت فى حياتى من جراء الاعتماد على هذا الميل والهوى، ولقيت ما لقيت، من متاعب ومصاعب وأمور أنت أولى الناس بمعرفتها. ولو أنى أصخت لمن نصح لى باختيار مهنة الطب لكنت، على ما أظن، قد وفقت، إلى تحقيق ما طمحت إليه وما أردت. ولكننى أحببت الأدب، وشغفت بالصحافة، فاندفعت فى طريق غير مأمون العواقب، بل غير مجد ولا مخصب، رغم ما فيه من ظهور وشهرة وخدمة عامة، قد يحقق الكثير منها فى أية حرفة من الحرف الشريفة العظيمة الفائدة للأمة، كالطب والهندسة والمحاماة، بل والقيام بوظيفة فى حكومة البلاد.

وما هو واجبى؟ بل ما هى مهمتى؟ بل ما هو الغرض من رسائلى المتكررة المتوالية، إذا أنا لم أصارحك القول فى هذا الموقف العصيب، وأشر لك بأصبعى إلى الطريق المعبد، والسبيل الممهد، وأحذرك الولوج فى المسالك المملوءة بالأشواك والأدغال، والمعرضة للأخطار والمفاجآت، كما يسلم جسمك وعقلك، وتأمن على صرح حياتك من التداعى والانهيار بعد أن تكون قد أقمت بناءه بجدك وكدك أعواما طوالا؟

الحياة يا بنى لا تعاد مرة أخرى!! ومن ذا الذى ضل السبيل ولم يتمن أن يبدأ حياته من جديد؟؟ كثيرون يتمنون ذلك كما يتمنى الهرم أن يعود شابا - من ذا الذى شعر بالخيبة أو أحس أنه قد فاته فى أيام شبابه وعنفوان صباه، ما كان يستطيعه من وراء مجهود كان ممكنًا فى ذلك الزمن فلم يعد مستطاعًا بعد ذلك؟؟ أقول من ذا الذى شعر بشىء من هذا ولم يردد الكلمة الفرنسية المشهورة

Ah, si Jeunesse savait,

et si vieillesse pouvait,

ومعناها بالعربية:

أواه لو عرف الشباب

وآه لو قدر المشيب

فـاحذر أن تقع فى يوم مـن الأيام فى مثل هذه النـدامة، وذلك بأن تحـسن التفكير فى أيام شبابك، وتحسن اختيار مهنتك، وتبذل أفضل مجهود للوصول إلى بغيتك، فتأمن مغبة الزلل وألم الندم.

ولننظر أنا وأنت، إلى الحـقائـق، ولا نضرب فى بيـداء الأوهام والخيـالات ولنعالج أمر اختيار مهنتك، من وجوه النظر المختلفة، لنصل إلى إقناعك بما يجب أن تضعه نصب عينيك، وتجعله هدف سهامك فلا تحيد عنه.

إننى أعلم أنك فى اختيـارك لمهنتك ستكون مسوقـا بدافع ميلك العقلى، أو تبريزك فى فن من الفنون. ولكن هذا الميل أو التفـوق الوقتى يجب ألا يقف حائلا دون الإصـغاء إلى رأى أولى الخـبرة فى الحـياة. وأظـنك تفهم الغـرض من هذه الإشارة. إذا قلت لك أن الميـل الغريزى لفرع من فـروع العلوم لا يمنع الاشتـغال بفرع آخر كـحرفة فى الحياة. بحـيث يكون هذا الاشتغال الجدى لـلمصلحة المادية وكسب المال، الذى هو أسـاس كل سعادة وهناء فى هذه الدنيـا بالرغم من كل ما يكتب ويقـال، ويكون بعد ذلك الميل الغـريزى للفروع الأخـرى، من قبـيل اللذة العقلية، وقضاء أوقات الفراغ، فى أعمال أدبية أو علمية. ولكم عرفت من الأطباء من كان أديبًا كاتبا، وشاعرا مفلقا مبرزا، ولكن أدبه وشعره، ما كانا ليجمعا له ما جمع من الثـروة، وما خلف من الخيرات لأولاده من بعده. وزد عـلى ما تقدم أن اتخاذ حـرفة من الحرف كـالطب والهندسة أو المحـاماة مثـلا، لا يمنع الإنسـان من الاشتغال بالحرفـة التى يميل إليها بفطرته، وإن لم يتخذ دراستهـا وسيلة للمعاش، فكثيراً ما سمعنا ورأينا أطباء فى صفوف الصحافيين والسياسيين ورؤساء الحكومات وفى مجالس النواب وهلم جرا.

تعلّم صديقى «الدكتور إدوارد براون» المستشرق الشهير صناعة الطب، وحاز فيـها درجة عاليـة من جامعـة كمبردج، ولكنه لم يـتخذها حرفـة له، بل شغف باللغات الشرقـية وسافر إلى بلاد فارس، فإذا قرأت كـتابه الجليل المعنون «عام بين الأعجـام» (وألح عليك بضرورة الاطلاع على هذا الكتاب) ترى كـيف أن صناعة الطب أفـادته فى رحلاته، وأنقـذته فى بعض الأحـيان من الأخطار، وسـهلت له وسائل إدراك المعارف التى كانت نفسه ظامئة إليها.

وأول ما يجب أن تـضعه نصب عـينيك فى اختـيار حرفـتك، هو أن تكون بواسطتها قادراً على كسب المال اللازم لنفسك ولأسرتك فى المستقبل، ولبناء صرح المجد الذى تتطلع إليـه، دون أن تكون فى ذلك محتاجا إلى مـعونة من أحد، أو مضطراً إلى مجاراة أو خدمة أغراض قوم، مهما ارتقت منزلتهم أو علت كلمتهم. وبعبارة أكـثر إيضاحًا أقـول: إننى أحب لك أن تأخذ فى حياتك بعـمل تكون فيه حرًا مطلقا، غير مرتبط بالتقلبات السيـاسية أو الحكومية، بحيث تستطيع أن تعيش فى أية مدينة، أو تقيم فى أى بلد، تعرف كـيف تكسب فيه المال، وتخدم قومك، أو الجنس البشري على وجه الإطلاق. وليس فى نظرى أقـرب لتحقيق هذه الأمنية من صناعة الطب.

ولقد ذكرت لك أنـنى أحب أن أواجه الحقائق معك، ولا نـضرب فى بيداء الأوهام والخيال. فلو كنت ذا ثروة كبيرة مثلا، وكان فى الإمكان أن ترث من المال والعقار ما يضـمن لك مقدار ما يجب إنفاقه على نفـسك، لصح لك أن تختار ما تريده من المهنة، وما تنصرف إليه جوارحك من الأعمال الفنية والأدبية. أما والحال غيـر ذلك، واعتـمادك فى المستـقبل لا يكون إلا على نفـسك، وعلى ما تكسـبه بعـملك وجدك واجـتهادك، فـأنت مسئول أمـام نفسك، وأمـام أهلك، بل أمل المستقبل المجهول من ولدك، أن تختار المهنة التى هى أضمن من سواها.

ولقد يرى بعضهم أن دراسة الحقوق تمـكن الإنسان من اتخاذ حرفة المحاماة، وهى حرفـة شريفة، كمـا أنها قد تفتح البـاب للطموح إلى مراكـز الحكم والنفوذ والصعـود إلى أعلى مراتب المجـد وهذا صحـيح يا بنى، ولكنى ممن يعتـقدون أن صناعة الطب أنفع لصاحبها من كـل الوجوه، فهى أولا وسيلة من أحسن الوسائل للمحـافظة على صحة الإنسـان وآله، وتلك أس السعـادة والهناء، وأول ما يكون الطبيب طبـيبًا لنـفسه ولولده ولأهله. وثانيـا: إن صناعة الطب لا تقـيد ببلد ولا بلغة، فالطبيب المصرى طبيب فى أوربـا، وطبيب فى أمريكا، وطبيب فى مجاهل أفريقيا، والمحـاماة ليست كذلك. وأما من حيث التطلع إلى مـراكز الحكم والنفوذ فليس ذلك بممنوع عن الطبـيب إذا وجدت فى نفـسه هذه الرغبـة وخصـوصا إذا

ارتقت النظامات النيابية فى هذه الديار. ومن ذا الذى يفضل المنازعات السياسية والتقلبات الحكومية على حياة العلم وتخفيف مصائب الإنسانية.

وهناك مهن كثيرة فى مصر كمهنة المهندس والزراعى الفنى والأعمال التجارية، وليست فى نظرى مما يحسن اختياره بالنسبة لحالك وظرفك الخاص وقلما يستغنى المهندس عن خدمة الحكومة، وإلا اضطر إلى الاشتغال بأعمال شاقة تقضى عليه بالتنقل فى القرى، أو مباشرة تشييد مبان أو ما أشبه ذلك. مع أن العلوم التى يتلقاها المهندس، والمواد التى يجب عليه إتقانها قبل الحصول على الشهادة النهائية، من أصعب المعارف، وربما كانت أصعب فى التحصيل من العلوم الطبية، ولكن فوز الطبيب فى الحياة أكثر ضمانة من مستقبل المهندس حتى ولو ارتقى درجات عالية فى وظائف الحكومة.

أما التجارة والزراعة وما أشبه ذلك فليست لك. وإنما هى لقوم ينشأون فيها أو يكون لديهم من الأطيان الواسعة الخصبة ما يمكن من الحصول على الإيراد الكافى.

والخلاصة يا بنى إننى أحب لك أن تفكر طويلا قبل اختيار الطريق الذى تسير فيه وأنصح لك أن تعتمد على رأيى الذى أبديته لك فى هذه الرسالة. وسأكتب لك بعض آراء عن الحياة العملية بعد خروجك من المدرسة. مؤملا أن تجد فى هذه الرسائل ما ينير بصيرتك. ويهديك إلى شاطئ السلامة ونعيم العيش.

وأسأل الله أن يوفقك إلى اختيار أسلم الطرق، وأن يجعلك سعيد الحظ. موفور الكرامة. وسلام الله عليك وأزكى تحياته.

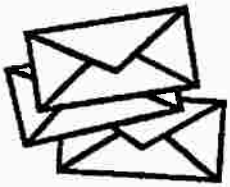

الرسالة الخامسة عشرة
بعد الدراسة

ولدى العزيز:

أريد الآن بعد أن شرحت لك رأيى فى طرق التعليم والدراسة فى بعض العلوم، أن أكتب لك شيئًا فى تهذيب الأخلاق، والآداب العامة، وفى حسن السيرة، إلى غير ذلك مما يخطر ببالى من آن لآخر، وغرضى من ذلك هو أن تقرن العلم بالأدب، وتثقيف الذهن بحسن السيرة، وحسن المظهر، وكمال الظرف، ورقة الحاشية، وجمال الخلق. وأريد بهذا أيضًا أن أرشدك إلى سواء السبيل، وأن أنبهك إلى المزالق التى تجب الحيطة من الوقوع فيها.

وبعبارة أخرى، أريد أن أقدم لك خبرتى وتجاربى فى الحياة، كيلا تقع فى مثل ما وقعنا فيه من أغلاط، ولكى لا تدفع فى حياتك المقبلة ما دفعناه فيها من ثمن غال، وما تجرعناه من مرارة الحياة، وذقناه من آلامها.

أريد أن أضع نفسى منك، موضع المرشد لك، الحريص على سلامتك، المشغوف براحتك، ولا تظن، فيما أريد أن ألقيه عليك من النصح والإرشاد، أنى سأملى عليك إرادتى كوالد، أو مرب، كلا. إننى أريد فيما سأبعث به إليك فى رسائلى المقبلة، أن أخاطبك كصاحب وصديق، بل وصديق متساهل، يفهم الطبيعة البشرية، ولا يريد أن يكون متشددًا متعجرفًا، أريد أن أهديك وأرشدك حتى فى لعبك ولهوك؛ لأننى أعتقد أن طرق النصح والإرشاد للناشئين يجب أن تتكيف بحالة الزمان، وظروف الإنسان.

هذا، فضلا عن أنى ممن يعتقدون أن الزمن الذى كان يصح فيه النصح على طريقة التخويف من العقاب، والوعد بالثواب، وما فى الآخرة من جنة ونار، قد مضى وانقضى.

ولذلك سترى أننى بدلا من أن أقول لك إن هذه أو تلك خطيئة لا ترتكبها، سأقول لك أنه لا يليق بأدبك، ولا يليق بشرفك، ولا يليق بنشأتك، ولا يليق

بسمعتك، ولا يليق باسم أهلك وقومك بل ولا يتفق مع مصلحتك، أن تقرب تلك الرذيلة مثلا، بل سأجتهد فى إقناعك بأن تمسكك بالفضائل، ومحافظتك على حسن السمعة، وما يجرى مجرى ذلك من كمال الأخلاق، والبعد عن الرذائل، لهو من ضروريات نجاحك فى الحياة، وإن من مصلحتك الذاتية أن تكون فى جانب الفضيلة، وأن تسلك مسلك الأدب والكمال.

رغبتى: هى أن أوقظ فيك عاطفة الميل للفضائل ومكارم الأخلاق، وأحذرك من ارتكاب الهفوات والأغلاط، وأريك ما ينتظرك فى مستقبلك، وبعبارة أخرى، أريد أن أرفع المصباح بيدى أنير به طريقك، حتى يشتد ساعدك وتأمن على قدمك العثار. ولكى أؤدى هذه المهمة التى أعتقد أنها من واجبى نحوك، كما أنها من أقدس الواجبات على كل والد، حتى لا يصدق عليهم قول المعرى «هذا جناه أبى»... لكى أؤدى هذه المهمة، أبدأ فى هذه الرسالة أن أذكر لك أن الحياة المقبلة التى تنتظرك بعد إتمامك دروسك، وخروجك من المدرسة، ليست كما تصورها لكم مخيلاتكم وأنتم فى زمن التعلم، فأنا أعرف وأعتقد، أنكم تتصورون أن زمن الدراسة هو زمن التعب والشقاء، وأن السعادة والهناء، هى فيما وراء سور المدرسة، وبعد نيل الشهادات.

هذه فكرة كلها خطأ وضلال، واعتقاد صحتها يعود بالضرر الكبير على الشبان فى مقبل حياتهم، بل ويسىء إليهم فى زمن دراستهم. وعندى أنه يجب أن يكتب فى هذا الموضوع مطوّلا مفصلا، وأن يغرس فى أذهان الطلبة فكرة أن حياتهم المدرسية هى أسعد أيامهم، وأهنأ أوقاتهم، وأن الذى ينتظرونه من الحياة السعيدة، والراحة المستديمة، بعد إتمام دروسهم، ليس صحيحًا.

يجب أن يغرس هذا فى أذهان الطلبة، لأن له فوائد كثيرة: منها أنهم يقبلون على التعليم بلذة وسرور، ويذهبون إلى المدارس فى صبح كل يوم بوجوه مشرقة، وثغور باسمة، ويعودون إليها بعد كل عطلة وإجازة بسرور وفرح وطرب، فيزداد فيهم الميل إلى التعلم،.. ويزداد حبهم لرفقائهم، وحبهم لأساتذتهم، وحبهم لألعابهم الرياضية، وحبهم للمدرسة ولكل شىء فيها.

ومن فوائد ذلك أيضًا أنه إذا اعتقد الطلبة، أن أيامهم المدرسية هى أهنأ أيامهم، وأن الجهاد والجلاد، والتعب والنصب، لا تبدأ إلا عند الدخول فى الحياة العملية، فلا يقوى فيهم الميل الشديد إلى التخلص من الدراسة ولا يبلعون دروسهم بلعًا بغير مضغ، فلا تهضمها عقولهم، ولا تسرى فى أرواحهم. وزد على ذلك أنهم تيقنوا أن الحياة المقبلة عليهم ليست كما يصورونها فى مخيلاتهم، جنة قطوفها دانية، بل بالعكس هى حياة كد وجد، فإنهم يفكرون فى اختيار العدة لذلك الجهاد الطويل من علم وعمل وأخلاق، كما يأخذ المسافر، سفرا طويلا، عدته لذلك من زاد ومؤنة ولباس وسلاح.

إن تصويركم، يا بنى، للحياة المقبلة تصويرا زاهيًا لامعًا يسىء إلى عقولكم كثيراً يوم تلجون ميدان الحياة وتصدمون بما تلاقونه فيها من مرارة وألم وهم وغم. ولذلك فإنى أنصح لك ألا تصور حياتك بعد المدرسة بذلك اللون الوردى، بل صورها كما أريد أن أفهمك إياها على حقيقتها. واعلم أنها حياة الجد والعمل والكفاح، لكيلا يصدم عقلك صدمة عنيفة فإن الإنسان الذى يعرف أنه داخل على ظلام يعدّ له عينيه، ولا يؤخذ على غرة ولا تتولاه غشاوة، فيضل بعد هداه.

وما هى فائدة العلم والتهذيب؟ بل ما هى فائدة هذه النصائح وأمثالها إذا كانت لا تؤدى إلى إنارة الطريق لك فى حياتك المقبلة؟ ولماذا ينفق الآباء أموالهم فى سبيل تربية أبنائهم، ويجودون براحتهم وهنائهم ومطالبهم الخاصة، إلا للحرص والشغف بمستقبل أبنائهم، وأول ما يجب على الآباء، كما قلت، هو أن ينبهوا أبناءهم إلى ما ينتظرهم فى المستقبل من المتاعب والمصاعب.

إننى لا أريد أن تخرج من هذه العبارات بأن الحياة التى أنت مقبل عليها سوداء، مملوءة كلها بالهم والنكد والعناء... لا.. إننى بعيد عن هذه الفكرة كثيراً، بل أنا ممن يعارضون فكرة التشاؤم ونظرية اليأس لأنها مضرة بالأخلاق، ومؤدية إلى نكد العيش الدائم، والحياة، يا بنى، فيها خيرها وشرها! لها ليلها، ولكن لها أيضًا نهارها! وإن كان لها مساؤها القاتم، فلها فجرها الزاهر! ونعم لها شتاؤها، ولكن لها أيضًا ربيعها وصيفها وخريفها.

إلا أن الواجب هو أن يعرف الناشئون أن حياتهم المقبلة ليست كلها كما تصورها لهم مخيلاتهم فى المدرسة، وأن من الواجب عليهم أن يكوّنوا فى أدمغتهم فكرة ما تحتاجه الحياة المقبلة من الاستعداد البدنى والعقلى والأخلاقى لتلقى صدمات الحياة إذا صدمت، ومواجهة العواصف إذا هبت، وللفوز والوصول إلى مراتب المجد والعلاء متى طلبت وقصدت!

وهنا أحب يا بنى أن ألفت نظرك، «وأنا متشدد فىَ هذه النقطة أكثر من كل شىء سواها»، إلى أنه يجب أن تعتقد أن التعليم لا ينتهى بانتهاء الدراسة فى المدرسة ونيل الشهادات النهائية العالية. إنما التعليم فى المدرسة أساس للتربية العقلية، وللتثقيف الصحيح الذى يطلق عليه باللغات الأوربية كلمة (Culture)، وذلك التثقيف الذى لا يتم لإنسان إلا فى تربيته ودراسته الخاصة. ولكى تكون رجلا راقى الفكر، سامى الرأى، مثقف الذهن، عالما فاضلا متينا، بالمعنى الصحيح، يجب أن تفهم أن التثقيف الحق يبتدئ بعد إتمام الدروس المدرسية التى تعتبر أساسًا للتربية الحقيقية.

وهل يمكن أن يخطر ببالك أن التعليم المدرسى الذى يستوى فيه جميع طلبة العلم على اختلاف استعدادهم العقلى والوراثى، يكون كافيًا للظهور فى الحياة، والميزة على الأقران، لو كان الأمر كذلك لكان كل الحائزين لشهادات علمية متماثلة، فى درجة واحدة من المنزلة العلمية، والسمو العقلى، بل وفى صف واحد من صفوف الحياة، وما خلق الناس ليكونوا أندادًا وأمثالا فى كل شىء:

التثقيف يا بنى يبتدئ بدراستك الخاصة وميلك للعلم الذى تنصرف إليه جوارحك، أو بحثك المستفيض فى الفنون الذى ترتبط بحرفتك أو مهنتك أو وظيفتك فى الحياة. والعلم ليس جامدًا منتهيًا عند حد. كلا: إن العلم فى كل نوع من أنواعه سائر إلى الأمام يومًا بعد يوم، إن لم نقل دقيقة بعد دقيقة. نعم وقفت الأصول والقواعد الثابتة فى العلوم ثبات جذع الشجرة وجذورها، ولكن الأغصان والفروع تنمو فى كل لحظة؛ ولهذا وجب عليك أن تتبع هذا النمو فى الفنون التى تشتغل بها لمعاشك ومركزك، وكذلك فى العلوم والمباحث التى تميل إليها لفائدتك ولذتك.

لا يفتك فى العلـوم التى تختارها كـما ذكرت لك، ولحـرفتك ولذتك، أن تتبع الحركـة العلمية فيـها بكل دقة واهتمـام، فتكون لك صلة بالمكاتب والمطابع، ويصل إليك من آن لآخر بانتظام جميع الفهـارس للكتب الحديثة والمجلات العلمية والأدبية التى تصدر فى أوقـات مختلفة، وبعـبارة أكثر اختـصاراً، أريد أن تشغف بالعلوم والمعـارف لتكون منارًا يهـتـدى به حتى لا يمـتـار عنك أحد من أقـرانك وأندادك بشىء من الأشياء.

ولقد ورد فى الحديث الشريف قول النبى الأعظم ﷺ: «لا يزال الرجل عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل».

فتأمل يا بنـى رعاك الله فى قوله عليه الصلاة السـلام: «من ظن أنه قد علم فقد جهل» ففيها كل الحكمة، وهى نهاية النهايات وغاية الغايات. فإن خطر ببالك يوما أنك قد عـلمت أو انتهيت من العلم، فإن هذا الخـاطر وحده، يكون العنوان الناطق بجهلك، وانحطاط عقلك.

ومثل هذا قـول رجل حكيم من العرب وهو أبو عمر بن العـلاء. قيل له: «هل يحسن بالشيخ أن يتـعلم؟» قال: «إن كان يحسن به أن يعـيش فإنه يحسن به أن يتعلم».

ومعنى هذا أن التعليم مـقرون بالحياة إلى آخر نفس فيهـا. فمتى عرفت هذا وتأكدت منه، وتأصل فى نفسك، أمكنك أن تفهم أن العلم والتربية والتثقيف، إنما تبدأ بعد إتمام العـلوم المدرسية، ومن هذا يمكنك أن تفهم وتقـدر الحياة التى أنت مقبل عليها بعد المدرسة.

فلهذا أريد - كمـا قلت لك فى مبدأ هذه الرسالـة - أن أنبهك وأرشدك فى مسـالك تلك الحياة التى أنت مقـبل عليها وأسـير معك، لا كالآمـر المتعنت، بل أحب أن تتـخـذنى معـك «كدليلك وفـيلسـوفك وصـديقك»، وأؤكـد لك أنك ستستطيع معى صبرا، وأنك تكسب من نصحى وإرشادى.

والله المسئول أن يجعلك ممن يستمعون النصح ويعملون به.

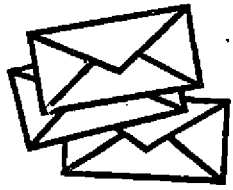

الرسالة السادسة عشرة

السلوك

ولدى العزيز:

ليست العلوم والمعارف، على اختلاف أنواعها ودرجاتها، كيفما نبغت فيها، وكيفما أخذت بأوفر قسط منها، كفيلة وحدها بنجاحك وفوزك على الأقران، وتقدمك إلى الصفوف الأولى بين بنى الإنسان، وما أريد لك إلا الفوز والنجاح والفلاح، إننى أنفق عليك من مالى القليل الضئيل، وأبعث لك بهذه الرسائل بين فترة وأخرى، وأشرف على تعليمك وأسأل معلميك عنك، وأفكر فى مستقبلك على الدوام، كل هذا رغبة منى فى أن تفوق غيرك وتحصل على ما فاتنى إدراكه لظروف لا محل لذكرها لك، وإن شئت أن أصرح لك بشىء منها، فلا أقول لك أكثر من أنه لم يكن من حظى أن أجد من يرشدنى فى مبدأ حياتى، كما أخذت على نفسى إرشادك وهدايتك، لكيلا تقع فى شىء من الغلط أو الخطأ الذى وقعنا فيه، بحسن نية وسلامة قصد، فعاقنا على إدراك ما نريده من الآمال لأنفسنا، وما نعتقد أنه حق لنا.

أدع هذا ففيه من الذكرى المؤلمة ما فيه، وأدخل معك فيما أشرت لك إليه فى أول هذه الرسالة، وهو: إن العلوم والمعارف، وسعة الاطلاع والتهذيب التام، ليست وحدها كفيلة بنجاحك، إذ يلزمك التحلى بأخلاق وصفات ومظاهر، لا اتصال لها بالعلوم والمعارف، ولا بالكتب والمباحث، ولا بالبلاغة والفصاحة، ولا بشىء مما أتعبت نفسك فيه من تحصيل تلك المعارف. وأعنى بتلك الأخلاق والصفات، مظهرك ولطف مقابلتك، وحسن بزتك، وجميل هندامك، وظريف حديثك وكلامك، وبعبارة أخرى هو كسب رضاء الناس عنك، وميلهم إليك. وهو ما سماه اللورد تشسترفيلد فى كتبه لولده «صناعة الإرضاء»[1] وشرحها لولده شرحًا لطيفًا فى الكتاب الرابع عشر من كتبه، فألفت نظرك إلى تلاوته بإمعان فإن

(1) The Art of Pleasing.

فيه الكفاية. وليس ثمت ما يحملنى على أن أردد لك هنا أقوال وآراء ذلك الرجل الحكيم، فإن معرفتك باللغة الإنجليزية تغنينى عن تعريب بعض عباراته التى أفضل لك أن تتطلع عليها، وتتفقه معانيها، فى لغتها الأصلية. وإنما أريد أن أنبهك إلى بعض الوسائل التى تلزمك فى مثل أحوالك الخاصة فى بلادنا، وما أرجوه لك من حسن الأحدوثة وكمال الصفات.

إننى أريد لك أن تسطع وتلمع فى الحياة. يشار إليك بالبنان، وتحنى لك الرؤوس إكرامًا واحترامًا، ويملأ منظرك الصدور هيبة وجلالا، ويبعث شخصك فى النفوس حبًا وانعطافًا، وتكون إذا دخلت فى مجلس من المجالس الحافلة، كالنور الكهربائى إذا سطع على الشموع، لا يطفئها، ولكن يجعل نورها دون نوره بهاء وسناء.

لهذا أحب لك أن لا تستخف بشىء مما يعده الناس من المظاهر الكمالية أو الخارجية، فلا يراك أحد إلا متجملاً بأحسن اللباس وأقربه للكمال والرقة والظرف المطلوب المرغوب فى زمانك. ولا يخطرن ببالك أن هذا يقتضى المال والإسراف للحصول على الملابس الفخمة الغالية، كلا فإن النظافة والبساطة، وسلامة الذوق وحسن الاختيار، تعوض على المتوسطين من الناس، ما ينقصهم من الغنى والثروة، بل كثيرًا ما رأينا متوسطى الناس أحسن بزة وألطف هندامًا، وأكمل انسجامًا، من ذوى اليسار الذين يتكلفون ويسرفون فى ملابسهم، بحيث يفقدون جمال الهندام، وينقصون من كمال الانسجام.

ومع أنى أريد لك أن تكون دائمًا متحليًا بأحسن الملابس، نظيفًا ظريفًا، فلا أحب لك أبدًا أن تزيد فى هذا إلى درجة أن توجه «للقيافة» كل اهتمامك، فتخرج من درجة الكمال والوقار، إلى الهزؤ والسخرية، وتصبح متكلفًا متحذلقًا. ومن أول الصفات اللازمة لمن يعنى بأمر ملبسه وهندامه، ألا يتعدى تلك الدرجة، إلى المنزلة التى يمكّن خصمه (ولكل إنسان حاسد وخصم) أن يرميه بأنه «متحفلط» «متغندر»، جل همه أن يخرج من منزله كالفتاة المولعة بنفسها. والحد الفاصل بين الظرف الصحيح، والتظرف الممقوت، وبين جميل الهندام، والمتحذلق المهذار، دقيق غير محسوس. فإن لم تكن حريصًا، كثير العناية باختيار مظهرك، لا إفراط ولا تفريط، فقد تنتقل فى شكلك من المحبوب المطلوب، إلى المحتقر الممقوت.

يشترط مع حسن هندامك الظاهر حسن المقابلة، ولطف الإشارة وخفة الحركة، وتناسب الصوت، بحيث لا يكون مرتفعًا ولا منخفضًا، ولا خشنًا ولا مرنًا. ثم لا تقابل أحدًا من الناس كبيرًا كان أو صغيرًا، إلا باشًا باسمًا، متواضعًا متلطفًا، ولا تزد فى حديثك عن الحد المطلوب مع المناسبات التى تقتضيها الظروف. وإذا رأيت فى أحد منهم ما لا يرضيك من ظاهره أو حديثه، فلا تشعره بعدم رضائك أو نفورك، فإن الناس يحقدون على من يظهر لهم، تفوقه عليهم، أو احتقاره لمنزلتهم ولصفاتهم وأحوالهم، وماذا يدعوك لاجتلاب حقدهم عليك، وأنت قادر على ألا تدعهم يفهمون منك، ما تراهم فيه من عيب أو نقص، والناس يا بنى يحكمون أهواءهم أكثر مما يحكمون عقولهم، فإذا رأوا منك تجاوزًا عن هفواتهم، وابتعادًا عن إظهار عيوبهم، وتحاشيًا عن كشف نقائصهم، أحبوك وأثنوا عليك وابتعدوا عن أذاك، وهو كل ما تطلبه منهم.

ولقد أشرت إليك فى تعبير خاص، إلى الابتعاد عن إثارة حقد الناس عليك، أو حسدهم لك، فنصحت لك أن تكون إذا دخلت فى مجلس من المجالس الحافلة، كالنور الكهربائى، إذا سطع على الشموس، لا يطفئها ولكن يجعل نورها دون نوره بهاء وسناء.

وهذه الإشارة تحتاج إلى تفسير وإيضاح، كيما يمكن أن تنغرس فى ذهنك، وتنجلى لها بصيرتك.

من الناس يا بنى، من يتولاهم الغرور، أو الثقة التامة بأنفسهم، أو يتملكهم حب الظهور والتفوق على الأقران، أو تأخذ بمجامع قلوبهم شهوة الفوز، فينسون أن للناس نفوسًا كنفوسهم، وعواطف كعواطفهم ومطامع وشهوات، كمطامعهم وشهواتهم، ولهذا يسيئون إلى أنفسهم من حيث يريدون الإحسان إليها. ذلك لأنهم يجتهدون فى كتم أنفاس غيرهم، وتحقير مدارك سواهم، والحط فى كفاية كل من يشهد مجالسهم، أو يحاول الاشتراك فى مناقشة معهم، فيجلبون على أنفسهم عداوة أولئك الذين يميلون إلى الظهور والشهرة، بإظهار ما عندهم من علوم ومعارف واختبارات وما خصهم الله به من طلاقة لسان، وفصاحة قول

وتعبير، وبدلا من أن يكسب الذكى الحصيف، من ذكائه وتفوقه، فى مثل هذه المجامع الحافلة بالناس، أو يسمو على أولئك المتوسطين المولعين بالظهور، يخسر ميلهم إليه، وربما حرضهم بذلك على معاكسته، والسعى لإسقاطه من منزلته، حيث كان فى إمكانه أن يسطع عليهم، ويسمو بحديثه وعلمه وذكائه عنهم، وفى الوقت نفسه يجتذب قلوبهم، ويستدنى إليه ميولهم، ولا يكون ذلك إلا بحسن التصرف فى معاملتهم، وعدم التهجم على معارفهم، ويكون ذلك بتركهم يظهرون ما يريدون أن يظهروه من مميزاتهم، وهو فى خلال ذلك يشرق عليهم بنور ذكائه الممتاز، ومعارفه الأسمى منزلة، والأمتن صفة، والأوسع مادة، والأصح رواية، والأنضج ثمرة، بحيث لا يشعرون بدبيب الحسد فى نفوسهم. ويتم له ذلك بوسيلة لا تدب معها عقارب حقدهم، على شخص ممتاز عنهم.

هذا هو الذى أردته لك بإشارتى إلى النور الكهربائى، لا يطفئ الشموع، ولكن سناؤه يظهر عليها.

ومع كل هذا فإنى أعترف أنك لن تسلم من الحاسدين والمعادين، والناقدين والحاقدين. ومن ذا الذى استطاع أن يسلم منهم؟ وقد قيل: «إن رضاء الناس غاية لا تدرك»، ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله. وفى حسن تصريفك للأمور، وتناولك للعلاقات بينك وبين أقرانك وأندادك باللطف والظرف، وكرم الأخلاق، والتواضع الذى لا ينقص من قيمتك ولا يبخس من حقك، ما يساعدك على الإكثار من المحبين والأصدقاء، والمعجبين بك والمعترفين بفضلك، وهذا يتبعه بمقتضى الحال الإقلال من الفريق الذى لم تتمكن من ضمه إلى فئة أنصارك وإخوانك، ولم تستطع بعد كل لطفك وأدبك وحسن معاملتك. أن تجذبه للانطواء تحت لوائك وتذكر قول الشاعر:

وما بكثير ألف خل وصاحب　　وإن عدواً واحداً لكثير

وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلك ممن يألفون ويؤلفون، وأن يوفقك فى حياتك المقبلة، إلى كسب رضاء الناس عنك، وثقتهم بك، وميلهم إليك، إنه سميع مجيب، وسلام الله عليك ورحمته وبركاته.

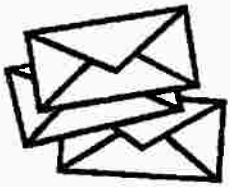

الرسالة السابعة عشرة
كسب ثقة الناس

ولدى العزيز:

ستـرى يا بنى فى حياتك المقـبلة، أطال الله أيامك وجعلهـا سعيـدة هنية، كـثيـرين من الرجال والسـيـدات الذين تقضى عليـك ظروف الحيـاة بمعاشـرتهم والالتصـاق بهم، لأسباب مخـتلفة، وترى من واجبك، ومـقتضى مـصلحتك أن تحظى برضاهم ومـيلهم ومحبتـهم دون سواهم. أولئك هم الذين يجب عليك أن تبذل منتهـى العناية فى إرضائهم وكسب مودتهم، والظهـور عندهم بمظهر الرجل الشريف الـكامل، الذى لا غبار عـليه من خلق أو سلوك، هذا فـضلاً عن الثـقة بأدبك وعلمك وفضلك، والاعـتماد على كفاءتك وتفـوقك ونبوغك. أولئك هم الخاصة من الناس الذين يقضى عليك واجـبك ألا يظهر فيك نقص، أو تبدر منك بادرة ضعف، أو سوء تصرف، أمامهم أو نحوهم.

متى توجهت نيتك إلى اكتساب ثقـة هذه الطبقة من الرجال والنساء فأول ما يجب عليك هو أن تحافظ أولا على ما شرحـته لك من حسن المظهر الخارجى من نظافة وهندام، ولطف فى الحديث وبشاشة فى الوجه. وثانيًا يجب أن تعلم أن قوة إقناعك، بفضلك ورجاحة عقلك لكسب ثقتهم قائمة فى الحقيقة على قاعدة رقيك العلمى والفكرى والأدبى، فإذا ثبتت عندهم ميزتك على سواك، فقد وصلت إلى قلوبهم، ونلت محبتهم، ووثقت من رعايتهم ومعاضدتهم.

ولكن يجب عليك أن تعلم يا بنى، أن لكل رجل، ولكل امـرأة مهما سـما عقله، أو سـمت مداركها، مـواضع ضعف، كمـا أن لهم مواهب راقية وأخـلاقًا سامـية، ومـيزات خاصـة، فإذا أردت أن تحظى بثـقتهـم ومحبـتهم، وإعـجابهم ومودتهم، فـاجعل همك مـوجهًـا إلى الثناء على مواهبـهم والاعتراف بفـضلهم وفضائلهم، وإظهار جهلك أمام علمهم، وحاجتك إلى الاغتراف من بحر فضلهم

أو تحاش أن تلمس، بالانتقاد أو الملاحظة أو الإشارة، أى شيء من النقص الذى تعرفه فيهم، وكثيراً ما يكون نقصًا بريئًا لا يضرك أن تملقه - بعض التملق - الذى لا يظهر أثره، بحيث لا يبدو على وجهك أو حركتك، أنك لا تريد من تمليقك لضعف أحدهم، غير ما ينطق به لسانك، أو يعبر عنه وجدانك؛ لأنه إذا اشتم أحدهم منك رائحة التهكم، فقد خسرت ثقته ومودته، وقد يكون الرجل مع ذلك الضعف فيه، عظيمًا فى كل صفاته الأخرى، فهو جدير بالإجلال والإكرام.

هذا الكاردينال ريشيلو، كما تعلم من درس التاريخ، كان أكبر سياسى فى زمانه بل كان من أعظم رجال العالم مقدرة وعلمًا، وسياسة وكياسة، فلم يكن فى حاجة من هذا القبيل، إلى شم بخور الثناء من أفواه الملتفين حوله، المتطلبين معونته ونصره، ولكن كان فيه مع ذلك ضعف خاص، وهو اعتقاده فى نفسه، بأنه شاعر من الطبقة الأولى، فكان يحسد (كورنيل) صاحب رواية «السيد» المشهورة حتى حرض على انتقاد روايته هذه. فكان من الرجال الأذكياء المحيطين به من انتفعوا كثيراً من تمليق تلك العاطفة، أو الضعف البسيط، فى خلق ذلك الرجل العظيم، وليس فى ذلك شيء من العيب والعار.

وإرضاء النساء، مصريات كن أو أجنبيات، وحسن عشرتهن من الصفات الضرورية للناشئين فى حياتهم المقبلة، لأن سطوتهن ونفوذهن فى الدوائر العالية، أمر لا يغفل عنه إلا قصير النظر، ومحدود الآمال. وأول ما يجب على من يريد الحظوة عند النساء الفاضلات، أن لا يؤلمهن فى مواضع ضعفهن، فهن فيه أدق إحساسًا وأنعم ملمسًا من الرجال، فمنهن من تحب أن تملق فى جمالها وهى ليست جميلة، ولكنها تخال أن جمالها فى رشاقتها وحسن هندامها ولطف حديثها. وأخرى تحب أن تملق فى أدبها وعلمها وميزتها على مثيلاتها. وأخرى تحب أن تحلق فى خفة روحها، وسحر عيونها، فإذا جمعت إلى حسن هندامك، ورشاقة مظهرك، ولطف معشرك، معرفة ما تصبو له نفوس أولئك النسوة الظاهرات، ذوات النفوذ والشخصية البارزة فى الهيئة الاجتماعية، فأظهرت الميل إليهن، والثناء على ما فى نفوسهن، والإعجاب بما يظهرن الرغبة فيه، والميل إليه، فإذا استطعت

أن تفعل هذا، واستطعت أن تفعله بغير تكلف، وبدون لهجة المتلطف، وحركة المتظرف، التى تشف عن الملق والرياء، فإنك تكون قد وضعت حجراً متيناً فى بناء هنائك، ونجاحك وفلاحك.

واعلم يا بنى أن هناك فارقًا كبيراً بين الظرف الصحيح، والظرف المصطنع، أى بين الظرف والتظرّف. وما دمت قد طرقت هذا الباب فيحسن بى أن أنبهك إلى ضرورة التحلى بالأخلاق الظريفة، الخالية من كل تكلف أو ادعاء، أو محاولة التودد إلى الناس بمظهر من مظاهر التظرف الممقوت الذى تلاحظه فى كثير من الناس الذين يحبون أن يوصفوا بأنهم أهل ظرف وأدب ورقة، ويسلكون فى سبيل الوصول لتلك الغاية طرقًا غير مألوفة، كأن تراهم يبتسمون لكل الوجوه، ويهشون ويتقربون ويتحككون بالناس، ويسلمون عليهم بإشارات من أيديهم، وحركات من أجسامهم. وكل هذه أمور تجعل الإنسان يشعر فى الحال بأنهم، فيما يظهرونه، غير صادقين ولا مخلصين.

ولا يقتضى ما ذكرته لك من ضرورة الأدب والتواضع، وحسن المقابلة، وظرف المعاملة، أن تخرج فيه عن الحد الطبعى الذى تألفه نفسك، ويألفه الناس منك، فلا تعبر الخط الفاصل بين الظرف الصحيح، والأدب الصادر عن إخلاص وحسن نية، ومقدرة على إظهار هذه الصفات الفاضلة فى ثوبها الطبعى الملائم، وبين ذلك التكلف الممقوت، والتظرف المحتقر. ومرجع الحكم فى ذلك، راجع إلى العقل الراجح، وحسن الاختيار، وكمال الاحتياط والوقار، بلا إفراط ولا تفريط، فلا تكن لينا فتعصر، ولا يابسًا فتكسر، وكن بين ذلك قواما.

وما قلته لك عن الظرف والتظرف، يصح تطبيقه على الحد الفاصل بين المداراة، والسموّ عن شهوة التفوق على الغير، ومجاراة بعض الناس فى ضعفهم الخاص بهم.. وبين التملق البارد، والرياء الكاذب، والنفاق الباطل، وما يتبع ذلك من الصفات التى تنزل بصاحبها من درجة السمو والكرامة، إلى مركز الاتباع والمنافقين والمداحين. وهو ما أحذرك إياه، وأنبهك إلى الحيطة من الوقوع فيه، والحكم فى ذلك الحد الفاصل موكول إلى حكمتك، أو ما يسمونه بالإنجليزية "Your common sense".

هذا ما أردت أن أكتبه لك فى باب السلوك ومعاملة الناس، وأنا عالم أنه لا يؤثر فيك، ولا فى غيرك من الناس شىء من هذا، إذ يرجع الأمر فى الحقيقة والنتيجة إلى إلهام فطرى، وذوق خاص، وطبيعة خاصة. فإن وفقت إلى أن تكون لك الروح اللطيفة والمزاج الظريف، فإنك تستفيد من هذه الملاحظات التى كتبتها لك بإيجاز. ففى الأخذ عن هذه النصائح، من الوقاية والحرص من الوقوع فى الخطأ والضرر، ما أظنه مفيداً لك ومنيراً لطريقك، ولهذا عنيت بتحرير هذه الرسالة إليك، وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقك ويهديك وينير سبيلك، فالهداية والتوفيق منه وإليه. وسلام الله عليك، وتحية منى إليك، يا فلذة الكبد، ويا ريحانة الفؤاد.

* * *

كلمة ختامية

كانت هذه الرسالة آخر الرسائل التى بعث بها الوالد إلى ولده وهو طالب فى الكلية الأمريكية ببيروت، فلما أعلنت الحرب العالمية، وانقطعت المواصلات بين مصر وسوريا، لم يكتب الكاتب بعد هذه الرسائل شيئًا إلى ولده.

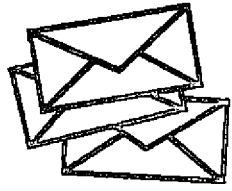

الرسالة الثانية عشرة
النجاح فى الحياة[1]

يؤثر عن أحد فلاسفة الفرنسيين أنه قال، إننى أشفق على من يحاول الكتابة فى المباحث الفلسفية، بعد الذى كتبه فلاسفة اليونان الذين لم يتركوا مجالا لقائل، ولا ميدانًا لصائل. وإننى أشفق منه على من يود الكتابة فى المباحث الاجتماعية الفلسفية، بعد الذى كتبه فلاسفة اليونان والرومان والأوربيين والشرقيين، من هنود وصينيين وفارسيين وأعراب وأتراك. وأكثر شفقة على قراء مثل هذا الكاتب الذى يكرر لهم ما قيل من قديم الزمان، وربما مسخه أو شوه محاسنه، أو زفه إليهم عاطلاً ناقصًا.

هكذا أنا، وهكذا هو اعتقادى عند كتابة هذا الموضوع الذى كتب فيه فطاحل العلماء، وألفت فيه الكتب، وخاض غماره كل فيلسوف كبير، وعالم عظيم، وتناقضت فيه المبادئ، واختلفت فيه الأفكار، إلى درجة استحسان القبيح، واستقباح الحسن، مما يضيع فى غمراته رشد الغائص على لآلئ الحكم، ويتيه فى وديانه عقل الباحث عن أصول الحقائق، وخصوصًا فى موضوع كهذا يجمع فى طياته، وثنايا طبقاته، من المبادئ ما له مساس بالأخلاق والتربية والعلوم، وعلاقة الظروف بالرجال، والرجال بالظروف، وانتهاز الفرص، ودخل الحظ فى نجاح الإنسان وفشله، وهلم جرا، حتى لقد خطر ببالى أن لا أجوس خلال هذه الديار، العتيق منها والحديث، وأنا ناقص التجربة علما وعملاً.

خطر كل ذلك فى فكرى، وكلما أقدمت على الكتابة أحجمت، فلا أنا أود أن أقدم لأهل الفضل الذين أعهد فيهم العلم الواسع، شيئا لا يليق بهم، ولا أنا أريد أن أتمثل باللورد «كلفن» أحد علماء العلوم الطبيعية فى العهد الأخير، الذى كان يكتب مقالة لإحدى المجلات العلمية عن إبرة البوصلة المعروفة فوقف عند

(١) «هذه الرسالة كتبت سنة ١٩٠٤ ننشرها فى هذا الكتاب لعلاقتها بموضوع رسائله».

نقطة رأى عندها لزوم إدخال إصلاح جديد على الإبرة، فترك مقالته ولم يكملها، إلا بعد عشر سنوات تمكن فيها من اختراع ما يصلح هذه الآلة الدقيقة.

أريد بذلك أن هذا الموضوع تشعب معى عند التفكير فيه، إلى حد أن خُيِّل لى أن مقالة واحدة لا تسعه، وإننى لو كتبت فيه كتابا ضخمًا ما وفيته حقه من البحث اللازم، وإننى بعد ذلك كله لا آتى بشىء جديد!!

قبل البدء فى الموضوع يجب أن نعين أولاً «ماذا نريده بالنجاح فى الحياة».

يراد بالنجاح فى الحياة: «نجاح الإنسان فى الوصول إلى غاية يعدها الناس، ويراها الواصل إليها غاية عالية». وهذه تختلف باختلاف الأنظار الموجهة إليها، حتى أنه ليصعب على الإنسان حصرها ضمن دائرة واحدة. ولقد حاول «ماكس نوردو» الفيلسوف العصرى الألمانى أن يحصرها فقال: «يمكننى حصر النجاح فى أن يكون الإنسان محترمًا، ذا قدر عظيم فى نظر الكثيرين من الناس». ولكن يناقضه غيره بقوله: «وماذا يهم الإنسان أن يكون محترمًا ذا قدر عظيم فى نظر الناس وهو منغص البال حزين النفس؟»، ويقول آخر: «هل النجاح فى الحياة أن يكون الإنسان محترمًا عند الناس، وهم لا يحترمون إلا الأغنياء، ولو كانوا جهلاء، ويحترمون أيضًا كثيرين ممن قام مجدهم الظاهر على ظروف أحوال، وممن وصلوا إلى مراكزهم بأسفل الوسائط وأدنى الوسائل؟». كل ذلك يدعونا إلى القول بأن اختلاف الناس فى الغاية التى يرمون إليها، هو الذى يزيد الموضوع إشكالا. فهذا يرى النجاح فى الحصول على مركز فى الحكومة، وذاك يراه فى اكتساب المال، وذلك يراه فى رفعة الجاه، وآخر يراه فى إصلاح حال البشر، أو نشر فضيلة أو قطع دابر رذيلة: ولله فى خلقه شؤون.

يقول «ماركوس أوريليوس» الإمبراطور الفيلسوف الرومانى: «يعجب العنكبوت بنفسه إذا اصطاد ذبابة، ويتباهى رجل إذا اصطاد أرنبًا، وآخر يفرح إذا أمسكت شبكته سمكة، وبعضهم إذا انتصر فى موقعة أو فتح مدينة». وحقيقة: إن اختلاف عقول الناس فى تقدير أشياء هذا الوجود مما يدهش العقل، فما تراه رذيلة، يراه غيرك فضيلة، وما يكون فى هذا الموضوع حسنًا، يكون فى غيره

قبيحًا، وما يُمدح عليه الرجل، تُذَم عليه المرأة. قال الإمام على: «خيار خصال النساء شرار خصال الرجال - الزهو والجبن والبخل - فإذا كانت المرأة مزهوةً، لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت (فزعت وخافت) من كل شيء يعرض لها». ومن كلمات «باسكال» المأثورة «حقيقة هنا، خطأ وراء البرينيه»(١).

فاختلاف العقول فى كل شيء، يؤدى إلى عدم وجود «وحدة» متفق عليها، فلكى نفصل ما نريده بالنجاح فى الحياة، لابد لنا من وضعه ضمن دائرة وحدود وغايات مخصوصة، لكل غاية مسعى خاص بها، بحيث يلزم طالب النجاح أن يوجه همته إليها، وفى ذلك ما يساعده على الوصول إلى مراده.

يمكن حصر النجاح فى الحياة فى ثلاثة أصول:

(١) الشهرة والجاه وشرف السمعة وما يجرى مجرى ذلك من الأبّهة والاحترام والإجلال.

(٢) السعادة الدنيوية واطمئنان البال.

(٣) الثروة وما تجلبه من الحصول على المشتهيات وقضاء اللذات.

الشهرة:

يقول عنها «ملتون» الشاعر الإنجليزى «إنها آخر نقص فى النفوس الشريفة»، يريد بذلك أن طلب الشهرة لذاتها نقص فى النفوس الشريفة. ومراده: أن النفوس الشريفة تطلب الشهرة، وإن كان ذلك نقصًا فى استعدادها، وحطًا لمنزلتها، فإن شيشرون يقول: «يجب أن يكون المجد والفضيلة، لا الشهرة، أحب مطالب النفوس، بل الغرض الوحيد فى الحياة» ولا نريد أن نخوض الآن فى ماهية الشهرة، وأصناف الشهرة الكاذبة وغير الكاذبة، والدائمة وغير الدائمة، ولكن نكتفى بالقول بأنه إذا كانت غاية المرء من الشهرة شريفة، كأن يقصد المرء بها خدمة

(١) كلمة لباسكال الفيلسوف أصلها Verité ici, erreur au de la Pyrinée يعنى: «ما هو صواب فى فرنسا قد يكون خطأ فى إسبانيا» وراء جبال البرينيه.

الجنس البشـرى، وإرشاده وقيادته، وترك أثر نافع وراءه، فـهى من أشرف المطالب التى تتوجـه لها النفوس الشريفـة، لا كما قال ملتون. ولا نخـوض أيضًا فى هل الشهرة فى ذاتها تفيـد صاحبها فى الحياة أو لا تفيـده، فقد يذهب بعضهم إلى أن الشهرة مجلبـة للعناء والشقاء فى هذا العالم، حتى قال بعـضهم: الرجل المشهور مثل صاحب السلطان أشبه براكب الأسـد، يهابه الناس، وهو لمركبه منهم أهيب. وقال آخر: «الظهـور يقصم الظهور» لما فى ذلك من الحيطة والاحـتراس والضغط على حرية الإنسان وميوله النفسانيـة من جهة، والخوف من السقوط فى عين الأمة والعـالم بهفـوة صغيـرة من جهـة أخرى، إلى غـير ذلك مما تجلبـه الشهـرة على صاحـبهـا. وقد تكون نافـعة مـفيدة له فـى بعض الأحيان تحـت شروط وظروف مخصوصة.

فإذا كانت بغـية الناشئ الطامح، هى الشهْرة ومـا يتبعها ويجـرى مجراها، فتلزمه تربية خاصة، وإرشاد مخصوص، واستعداد فطرى على شكل خاص.

السعادة الدنيوية واطمئنان البال:

يقول ملتون الشـاعر الإنكليزى فى إحدى قصـائده: «العقل وهو فى مكانه يمكنه أن يجعل من النعيم جحيمًا، ومن الجحيم نعيمًا».

وفى هذه الكلمة الصـغيرة كل المعـانى التى يمكن أن يؤتى بها عن السـعادة واطمئنان البال فى هذا الوجـود. كن غنيا كما تشاء، كن مشهـورًا كما تشاء، كن قوى البنية سليم الأعضاء كما تشاء، وكن كمـا تشاء فيما تشاء، فلن تكون سعيدًا مستريح البال مطمئن الخاطر إلا إذا أراحك عقلك، وأسعدك فكرك.

ما هى السـعادة وما هو الشـقاء؟ شيئـان متناقضـان حقيـقة. ولكن قل لى بعيشك، أليس كل مـا فى هذا الوجود أمورًا اعتبارية؟ يراك الناس سـعيدًا، وأنت ترى نفسك شقيًا، وترى غيرك سعيدًا، وهو يرى نفسه شقيا! فما هو الحد المحدود الذى يفـصل الشـقـاء من السـعـادة؟ لا يمكـنك أبدًا أن تضع حـدودًا وشـروطًا مخصوصـة، فتقول إلى هنا تقف السعادة أو من هنا يبـتدئ الشقاء. فالموت الذى يراه الناس أكبر مصائب هذا الوجود، يراه بعضهم رحمة وراحة من عناء الحياة:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميـــت ميت الأحيـــاء

وقال أبو العلاء:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

فحتى فى هذا الأمر الفادح، والخطب الجلل، تختلف العقول، فكيف يمكنها إذن أن تظهر لك الحد الفاصل بين السعادة والشقاء؟ على ذلك ترى أن قول ملتون: «إن العقل يجعل من النعيم جحيمًا ومن الجحيم نعيمًا»، هو حل إشكال كلمتى السعادة والشقاء، وعقلك هو الكفيل بسعادتك وشقائك. ويلزم لجعل العقل مؤديًا لسعادة الإنسان أن يكون حائزًا لمعارف خاصة، وأن يكون ذا استعداد خاص، ومزاج خاص كما سنفصله بقدر ما يحتمل المقام.

الثروة:

(الثروة) وما تجلبه من الحصول على المشتهيات وقضاء اللذات، هى اليوم معبودة العالم من صغيره لكبيره إلى درجة أن هذا الشغف بالثروة حجب عن أنظار طلابها الغرض المقصود منها، وحتى أنك ترى الذين نالوا بغيتهم منها يحتقرونها فى نهاية الأمر عندما يرون أنها لم تزدهم نقطة سعادة واحدة فى كأس حياتهم، بل بالعكس رأوا أنهم جمعوا لغيرهم، وكدوا لسواهم، وما حازوا من دنياهم، إلا الشقاء والعناء. ولا يغرنك ما تراه من عربات عريضة واسعة، وخيول مطهمة، وملابس مبرقشة مزوقة، وقصور باذخة، وأسباب لذات متوافرة، فما كل ذلك بنافع صاحبه، ولا هو بزائده لذة صغيرة عن أحقر حقير، وأصغر صغير.

قال «هلفسيوس» فى كلام له عن اللذة: «ملذات الفقير أقوى وأنفع وأكثر من ملذات الغنى، يأكل الفقير بلذة يتمناها الغنى، ولو أنفق كل ماله»، بل إن شئت فقل إن اللذات المادية للجنس البشرى متساوية متعادلة فى درجتها الطبيعية، وإنما تزيد وتقوى عند شدة الحاجة إليها، فهى عند الفقير أقوى منها عند الغنى.

ولكن إذا كانت الثروة لا تجلب سعادة ولا لذة، فكيف توجهت لها النفوس بمثل هذا الشغف والشوق الشديد، وجعلتها إحدى غايات النجاح والفوز فى

الحياة؟ أقول حقيقة إن الثروة جديرة بأن تكون مطمح أنظار وهدف سهام لأنها إذا اصطحبت بالعقل والحكمة كانت من أكبر وسائل السعادة الشخصية والجاه والشرف والرفعة، وإذا شئت فقل والعلم والفضل، وكل ما تطمح إليه نفس أو يصبو إليه فؤاد. ولكن أقول أيضًا إنها قل أن تصحب بالعقل الرزين المعتدل، لتناقض الاعتدال، والشغف بالمال، فى كثير من الأحوال: ذلك لأن الرجل المعتدل فى شؤونه وأموره، ومعيشته وأعماله، لا يفرط فى الحرص على المال فى مبدأ عمله أبدًا، بل تراه يتمتع بالجزء الأعظم منه ويدّخر شيئًا للمستقبل. ومن كان هذا حاله يستحيل عليه أن يجمع مالا، أو يحصل على ثروة كبيرة إلا بظروف خاصة نادرة لا يصح أن تتخذ حجة فى رأى، أو برهانًا على فكر. وقد دلت التجارب على أن الذين حازوا ثروة فى العالم بعملهم واجتهادهم وبنوا صروح مجدهم على الدرهم والدينار، كانوا شواذ فى إفراطهم، إما فى الحرص والبخل، وإما فى الإقدام والمجازفة، وليس يدخل الرجل الرزين المعتدل بين هاتين الطبقتين؛ لذلك ترى الكثيرين من الأغنياء يبلون بأعراض خاصة وأمراض عقلية تعوقهم عن التمتع بلذاتهم وثروتهم، حتى لو نالوا من شرف السمعة وعلو الجاه ما يصل بهم إلى مراتب الملوك.

خذ مثلا رجلا مثل «بيربونت مورجان» هذا الرجل الذى أدهش العالم بذكائه واستعداده لجمع المال وتثميره، وهو فى صحة وقوة بدنية، أفتراه متمتعًا مسرورًا مستريحًا؟ أتراه يتلذذ بحياته كما يتلذذ بها رجل معتدل فى الثروة والعقل؟ تقول لماذا لا يتمتع بثروته؟ أقول لأنه بلى بأمراض عقلية وأعراض طبعية جعلته يطمح لشىء خاص ليس فى الإمكان إيضاحه أو وضعه ضمن دائرة محدودة، بل يكفى أن يقال أنه نوع من مطالب الحياة التى تحرم الإنسان راحة عقله وتبعث فيه الوله بالزيادة والتوسع.

وليس يعزب عن فكر أحد أن طلاب الثروة وعشاقها الكثيرين يفتنون بحب الدنيا افتتانًا، والإفراط فى كل شىء خروج عن حد الاعتدال، وانتقال به إلى ضده. وأريد أن أقول: إن كل إفراط فى صفة من الصفات مضعف وناقل لها إلى

ضده. وأريد أن أقول: إن كل إفراط فى صفة من الصفات مضعف وناقل لها إلى ضدها، وفيه اختلال للتوازن العقلى، وما أحسن ما يقول له ملتون عن الدنيا «لا تحب دنياك ولا تبغضها ولكن يكفيك أن تعيش ما تعيشه منها براحة واطمئنان»، فحب الدنيا إلى درجة الافتتان بها متعب ومضر، وكرهها إلى درجة الزهد فيها مضر أيضًا.

وعلى كل حال فما حمت حول هذا الفكر إلا لأبين قبل الكلام عن التربية والصفات اللازمة للحصول على مطمع الثروة، أنها كسابقتها الشهرة والسعادة، لا تكون نافعة أو صالحة، إلا إذا قرنت بالحكمة العقل، وإن مطمع الرجل العظيم يجب أن يكون عظيمًا محكمًا، بحيث تكون النتيجة جديرة بقدر المسعى. أى يكون الذى تحصل عليه، يساوى ما أنفقته من عمرك وفكرك ومجهودك فى تحصيله.

* * *

أردت أن أخوض فى غمرات التربية والاستعداد اللازم للفوز فى الحياة لهذه الأغراض أو المقاصد الثلاثة، فتشعبت معى المسالك ولم أقدر أن أحدد نوعًا من تربية يصلح للفوز فى إحدى هذه السبل، حتى لقد ذهب فكرى إلى أن لا دخل لتربية، ولا دخل لعقل أو فكر، فى سبيل الفوز والنجاح فى الحياة.

إن القارئ لسيدهش من قائل يقول إن التربية لا دخل لها فى النجاح فى الحياة، وأنكى من كل ذلك أن لا دخل لعقل ولا فكر.. إن هذا القول يكاد أن يكون خرفًا، وأنا أكاد أصدق نفسى وأصدق المعترض علىّ، وكل ذلك من متناقضات أحوال هذا الوجود.

كم من عالم عامل، وكم من رجل قضى عمره بين الكتب والدفاتر والمحابر، وكم من رجال ذوى عقول واستعداد وذكاء، لم ينجحوا فى الحياة وفاز كثيرون بنيل الشهرة والثروة، وإن شئت فقل السعادة، بغير هذه العلوم، وبغير هذه الكتب والدفاتر، وبغير شىء مما نظنه خير الوسائل للنجاح.

يقول «داروين» شيخ علماء القرن الماضى - وخصوصا فيما يختص بالإنسان: «إننى أميل إلى الاعتقاد بأن التربية والتعليم لا يفيدان فى أخلاقنا ونفوسنا واستعدادنا للفوز فى الحياة وأن كل ما لدينا راجع إلى فطرة موروثة». ويقول «هربرت سبنسر»: «لو لم يكن عندنا من العلم إلا ما نتعلمه فى المدارس لكانت إنكلترا اليوم على ما كانت عليه فى القرون الوسطى، فجميع ما عندنا من المعارف الكبرى التى صرنا بها أمة عظيمة فى الدنيا، لم تنشأ من المدارس المعدة لذلك، بل من أكواخ صغيرة وزوايا مهجورة». وقال «ديمولن»: «إن الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا».

وهنا موضوع البحث والمناقشة: إذا لم تنفع التربية والتعليم حتى فى إظهار ثمراتها فى الأمور الصغيرة، فلأى شىء ينسب نجاح أولئك الذين ينشأون فى الأكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة؟ وهل يرجع ذلك إلى الحظ أو إلى العمل؟.

تأثير الحظ فى النجاح:

الحظ ومترادفاته: البخت، والمقدور، والمواهب الإلهية، والمصادفات، والظروف، والاستعداد الفطرى، إلى غير ذلك. وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو فوز الإنسان بغير عمله وكده ونصبه. أو بعبارة أخرى مساعدة الظروف والمقادير له فى حال من الأحوال. ومعنى ذلك عدم استقلال الشخص فى ذاته ونتائج أعماله.

ينكر بعض الناس الحظ والمقادير ويقولون كل إنسان بعمله، ليس له إلا ما قام به بجده واجتهاده، وعندما يرون من أحوال هذه الدنيا، فى أنفسهم وفى غيرهم، ما يدل على أن كثيرين تأتيهم المطالب جزافًا بغير كد وعمل يقولون: إنها المصادفات والظروف. وكلها وإن تنوعت أسماؤها ترجع كما قلنا إلى أصل واحد. قال «بوب» أحد مشهورى شعراء الإنكليز: «نحن ألعوبة فى يد الأقدار ترمينا يمينًا وشمالاً ونحن لا نعرف إلى أين نسير. فكما أن الحمل الصغير يمرح ويلعب قبل أن يذبح بدقيقة واحدة، وربما لحس بلسانه اليد التى مدت لتريق دماءه، كذلك نحن لا نعرف شيئًا مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة». ومع هذا فإن عقول الباحثين الذين غاصوا فى لجج العلوم والمعارف لا تكاد تستقر على نقطة واحدة فى هذا

الخلاف الذى هو فى الحقيقة أكبر خلاف بين العقول البشرية من قديم الزمان، حتى لا يكاد يخلو منه عصر من العصور. فتراه فى فلسفة الهنود، كما هو فى فلسفة اليونان، كما هو فى الرومان، وفى مدنية الإسلام، وفى المدنية الحاضرة، وله فى كل زمان شكل واسم. وخلاصته: «هل الإنسان مسير أو مخير»؟ وهل القدرة المدبرة لهذا الكون قيدت الإنسان بسلطة أو تركته حراً فيما يشاء، وغاية الأمر أنها المصادفات لا رابطة لها، ولا قانون يجمعها؟

هذا الذى ترك الأفهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولبعض الفلاسفة المتأخرين من الماديين رأى فى هذا الموضوع يرونه يحل هذا الإشكال، فيقولون: لا عقل ولا روح ولا نفس فى الإنسان أبداً، إنما هى الأجسام تختلف فى التركيب والأمزجة، والضعف والقوة لهذا العضو ولذلك الجهاز، فيختلف معها الإدراك، ويختلف الاستعداد، ويمتاز الناس بعضهم على بعض فيما يسمونه عقلا ونفسا وروحًا. وهنا يجب أن نقف وقفة صغيرة، لمناقشة هذا الرأى المادى الحديث.

يقولون: إن الإنسان شبيه بالآلة البخارية أو بآلة من الآلات تتركب من عدة أدوات صغيرة وكبيرة كل أداة تقوم بوظيفة. ومجموع القيام بهذه الوظائف ينتج حركة أو نتيجة مقصودة مطلوبة، فالمخ والأعصاب والقلب والمعدة والرئتان، وكل ما فى الجسم من الأعضاء التى تربو على الألف عداً، هى الآلات الصغيرة القائمة بوظائفها، ويترتب على حسن انتظامها ودقتها وقيام كل عضو منها بوظيفته خير القيام، بلا ضعف أو مؤثر خارجى، «إدراك» أو «عقل» أو «فكر» أو «نفس»، كما يترتب على قيام أجزاء الآلة البخارية بوظائفها «حركة» أو «دورة» أو «ضغط» أو «رفع» وهلم جرا.

وقد قامت على قضاياهم هذه براهين كثيرة لا تقبل النقض وتوسعوا فقالوا: «المعدة هى الرجل»، بمعنى أن الرجل كمعدته، إذا كانت قوية كان عقله قويا، وكان استعداده أرقى وأعلى من مريض المعدة، وهكذا قل عن كثير من الأعضاء الرئيسية فى الإنسان، كالمخ والقلب والرئتين. ويجمع ذلك قولهم: «العقل السليم

فى الجسم السليم»، وإذا تمعنا قليلاً فى هذا الرأى نرى أن لهذا الفريق من الفلاسفة حقا فى كثير مما يقولون، فإنك لترى أناسًا كثيرين يريدون إدراك المعالى، ولكن لضعف فى أجسامهم لا يقوون ولا يداومون على الأعمال. بل إن الأخلاق نفسها أثر من آثار الجسم وأعضائه، فترى الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبداهة، ثم الملل والفتور والكسل والميل إلى الشهوات، من صفات عصبى المزاج. وترى القوة والبطش والحمق والإقدام والطيش من صفات دموىّ المزاج، وقل ما شئت فى أخلاق الخليط من الأمزجة المعروفة، كأن يكون الشخص دموىّ المزاج صفراويه عصبيّه. فعلى هذا التركيب الخاص فى أجسام الناس تترتب الأخلاق والصفات والاستعداد، وإن شئت فقل فالفوز والفشل. ولعل ذلك هو معنى قول داروين: «إن كل ما لدينا من الصفات والأخلاق راجع إلى فطرة موروثة».

وهنا يتشعب معنا مسلك آخر، وهو هل يريد «داروين» بالفطرة الموروثة فطرة يرثها الأبناء، عن الأمهات والآباء، أو يريد بها الفطرة الطبعية للإنسان؟ إننى أعتقد بوراثة الأمزجة من الأم والأب، وفى اعتقادى أيضًا أن العلماء إذا أمكنهم حقيقة أن يقفوا على حقائق الأمزجة وتأثيرها التام فى الأجسام والأخلاق والاستعداد، وأمكنهم أيضًا أن يعرفوا ما يكوّن التناسل من الأمزجة المختلفة، فإنهم يحلون إشكالاً كبيراً ويساعدون على ترقية الجنس البشرى. إلا أننا من حيث موضوعنا هذا، وعلى فرض اعتقادنا بالرأى الأخير (وهو أن أخلاق الإنسان ونجاحه وفشله وارتقاءه وهبوطه واجتهاده وكسله كلها ترجع إلى تركيب أعضاء جسمه وقيامها بوظائفها) ننسب هذا الانتظام الجثمانى، إلى ما هو خارج عن عمل الإنسان واجتهاده، ويكون الإنسان فى الحقيقة آلة تسير كما شاء صانعوها الأول أو كما جاءت عفواً وجزافًا، ويكون لا مزية لأحد على أحد، ولا ذنب على مقصر، ولا عيب على ناقص، ولا فضل لعالم أو لكامل.

لو يعرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

ونرجع بعد هذا إلى القول بأن الإنسان واقع تحت سلطة من المقادير والمصادفات والظروف، وأن اجتهاد الإنسان لا يفيده إلا إذا كان ثمة استعداد فطرى

فيه، بل إن شئت فقل: إن صاحب الاستعداد ينقاد إلى العمل بفطرته التى فطر عليها، ثم نميل فى حكمنا إلى قول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

أو كما قال بعضهم:

ألا إنما الدنيا كمثل رواية تمثلها الأحوال والقول والفعلُ

ونحن كأشباح نمثل دورنا كما شاء كتاب الرواية من قبلُ

تأثير العمل فى النجاح:

هذا فيما يختص برأى القائلين بوقوع الإنسان تحت سلطة «الحظوظ» والمصادفات، ولكن هناك فريق آخر يقول بالعمل والجد والاجتهاد وانتهاز الفرص، والاعتماد على النفس. ويجدر بنا هنا أن ننظر إلى رأى هذا الفريق ونعرضه أمامنا لنستخلص من الرأيين وسطًا يكون منارًا يستهدى بنوره كل طالب للنجاح والفوز فى المطالب الثلاثة التى بيّنتها لك فى أول هذه الرسالة.

الكتب والرسائل القديمة والحديثة مفعمة بالحجج والآراء السديدة التى تحث على العمل والاجتهاد، وضرورة ذلك لطالب الفوز والنجاح فى الحياة. وكيف يمكن لأحد أن يحصل على مراده إلا بالسعى والعمل والجد والجلد؟ لا خلاف مطلقًا فى أنه لابد من السعى وانتهاز الفرص، حتى مع وجود الاستعداد الكفيل بالنجاح، وحتى إذا اعترض القائلون بأن الاستعداد الطبعى هو الدافع للعمل، فإن الظاهر للناس، هو أن الذين ينجحون فى الحياة لا يصلون إلى أمانيهم ومطامعهم من الدرجات العالية، إلا بالعمل والاجتهاد. قال اللورد أفبرى (السيرجون لوبك) فى كتابه «مسرات الحياة»: «كل من يسعى للفوز فى الحياة يناله، وإن كان لا يدرك منه كل ما كان يؤمله فى نفسه. إن الفشل الشريف خير من الفوز الدنىء، ولعمرى إن الإنسان إذا حاول وفشل، لا يخسر شيئًا مطلقًا، اللهم إلا إذا تولاه اليأس، ودخل على قلبه القنوط، وإننا إذا لم نحصل على مرادنا مرة، فليس ذلك بداع إلى قطع الآمال»، وقال باكون: «من يسعى ويتيقظ يرى الحظ، فإنه - «أى الحظ» - وإن كان أعمى لا يبصر، فإن العيون تراه» وقال الشاعر العربى:

وعليَّ أن أسـعى وليـ   ـس عليَّ إدراك النجاح

وينتج من ذلك أن العـمل ضرورى للنجاح، ولكنه لـيس كفيـلاً به، وعدم كفالته به، يرجع إلى أسباب كثيرة:

منها اتساع دائرة المطامع، وعدم تعيين الغاية التى يرمى إليها طالب النجاح. ذلك أنك تجد كثيرين من ذوى العقول المستنيرة والاستعداد الطيب، يطمحون إلى ما فوق طاقتهم، بل وفى كثير من الأحيان إلى ما هو فوق طاقة البشر. ومنشأ هذا الغلوّ والإفراط فى المطامع والآمال، أحلام يولدها الشباب، وقلة التجارب، وعدم قياس الحاضر بالماضى. وما أوسع عقول الشبان الأذكياء، فى مبدأ حياتهم، ميدانًا للتصورات والأوهام حتى لقـد يخيل للواحد منهم، وهو لا يزال فى دور التعليم، أنه لا يكاد يحصل على شهادته النهائية، حتى يلمس قبة الفلك بيديه، ويصل فى سنة أو ما دونها إلى ما وصل إليه غيره فى عشرات السنين، جاهلا ما يعترضه من العقبات التى يحتاج تجاوزها إلى الحـزم والعزم، والجلد والثبات والإقدام، والصبر والانتظار، حتى إذا فارق أبواب المدرسـة واستقل فى العمل الذى وضع نفسـه فيه رأيته يحلق فـى جو الأحلام، ويطيش سـهمه فى بيـداء الأمانى والآمـال، ويجد ويجتهد سنة أو سنتين، ثم لا يجد نفسه بعد ذلك إلا واقفًا على عتبة باب النجاح الذى خيل له فى مـبدأ أمـره أنه سيرقى بواسطتـه إلى أعلى قمم المجـد فى أقرب مدة. عند ذلك يتـولاه اليأس، ويتسرب إليـه الظن بأنه لم يحـسن اختيار الطريق ويتذبذب فى سيره، تذبذب «البندول» فى موضعه، ويجلس فى غرفته كئيبًا حزينًا يبحث عن طريق آخـر لنيل أمانيه الواسـعة الكبيرة. وهكذا يقـضى أيامه مجتـهدًا عاملاً، ولكنه غيـر مستقر على حال، كريشـة فى مهب الآمال، تراه كل سنة فى طريق لا يكاد يقطع منه بضع خطوات، حـتى يرجع إلى غيره، وتتوزع مـواهبه، وتنقبض نفسه، ويرجع من كل عمله بالخـيبة والفشل، «كالمنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»، وكـما يقول الإنكليـز فى أمثالهم: «الحـجر المتدحـرج لا ينبت عليه العشب». مع أنه لو ثبت فى مكان واحد، وداوم على عمل واحد، ووضع نصب عينيه غاية من الغايات، فإنه فى الـغالب، مع ملاحظة ظروف أخرى، يصل إليها

ويقرب منها، كما قال الإمام على: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان». ولذلك حذر الكثيرون من العقلاء طلاب النجاح من اتساع دائرة المطامع والتردد فقال المتنبى:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

ولذلك أيضًا قال اللورد إفبرى: «كل من يسعى للفوز فى الحياة يناله وإن كان لا يدرك منه ما كان يؤمله فى نفسه». ولا يخفى أن كثرة المطامع تضل العقول، كما قال الإمام على: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ومن الأسباب التى لا تكفل النجاح مع العمل، عدم تقدير الظروف والمناسبات. فإنك لتجد كثيرين من الناس نهضوا فى ظروف غير مناسبة، ولم يقدروا العقبات التى فى طريقهم حق قدرها، وخيلت لهم الطرق آمنة، والسبل مفتوحة، فأقدموا على اجتيازها مندفعين بحماسة ولدتها عقولهم الذكية، فجاهدوا وجالدوا، ولكن عادوا بعد ذلك كله بالخيبة والخذلان، يسبون الزمان والمكان. والشواهد على ذلك أكثر من أن تذكر. قال الدكتور جونسن الشاعر الإنكليزى الشهير فى قصيدة عنوانها «غرور المآرب الإنسانية»، يخاطب الناشئ الطامع: «ولكن هبك بلغت ما لم يبلغه سواك حتى سلمت لك كنوز العلوم مفاتيحها، وقادتك الحقيقة بشعاعها الساطع الوضاح، وصبت على الشك المريب نورها الباهر الزاهر. وهبك لم تخدع بالإشفاق عليك، والميل إليك، ولم تثن عزمك المصاعب. وهب أنك لم تركن مرة إلى الإهمال، ولم يسلب فؤادك فاتن الجمال، فطاشت سهامه المسددة بالنبال. وهب أيضًا أن آلام الأمراض لم تعرف لك مكانًا، ولم تزرك الأحزان يومًا ما. فلا تظنن بعد ذلك كله أن العيش خال من الهموم والأكدار! إليك عنى وسرح طرفك قليلاً فى ماضى الأيام وسالف الدهور، واترك درسك ساعة تتعلم فيها علوم الحكمة والاعتبار بغيرك، وانظر ما ينتظر طالب النجاح على باب مدرسته من متاعب الحياة الدنيا. هنالك ينتظره الحسد والتعب والحاجة والفاقة، وبعد ذلك القبر المفتوح. وانظر إلى الأمم كيف تراها بطيئة الإدراك، قليلة العدل لدرجة أنها لا تعظم مقام رجل كبير عندها إلا بعد أن

يصير جسمه ترابًا! وإن غرتك الأحلام بعد ذلك فاعتبر بحياة «ليديات»[1] وما تم «لغاليليو»[2]!! ويريد بذلك هذا الشاعر العظيم أن أمثال لديات وغاليليو وغيرهما، ممن لا تكاد تحصر أسماؤهم، لم ينجحو النجاح الذى يطلبونه؛ لأنهم قاموا فى ظروف غير مناسبة لأعمالهم، ومثلهم كما قال «توماس غراى» الشاعر الإنكليزى فى قصيدته الشهيرة المسماة «مرثية فى صحن كنيسة خلوية»: «كم من درة ثمينة ذات أشعة صافية تحجبها بطون البحار التى لا قرار لها، وكم من زهرة تزهو وتذبل وتضيع رائحتها الزكية فى هواء الصحراء».

ولدينا فى الشرق رجال كثيرون لو مهدت لهم الظروف، وفتح لهم الوسط، الذى يعيشون اليوم فيه، أبواب التقدم والارتقاء، لكان فينا أمثال بسمارك وغلادستون وشمبرلن ونابوليون ومولتك وسبنسر وسيمون وكبلنغ وروتشيلد وكارنجى وركفلر ومورجان. ولقد صدق الشاعر الشرقى الذى قال:

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

ومن الأسباب التى لا تكفل النجاح مع العمل، عدم انتهاز الفرص. فإن كثيرين من الطامحين الطامعين يجدّون ويجتهدون بثبات وتؤدة، ولكن تفوتهم الفرصة التى لو انتهزوها لخطوا أوسع خطوة فى طريق النجاح. ومن غرائب هذا الوجود تأثير الأمور الصغيرة فى الكبيرة، فقد توجد لحظات صغيرة فى حياة الإنسان يترتب على حركته أو سكونه فيها، إما صعود إلى السماك الأعلى، وإما انحطاط إلى الدرك الأسفل. قال نابليون الكبير: «فى موقعة مونتبللو أمرت كليرمان (أحد قواده) بالهجوم بثمانمائة فارس من الخيالة تمكن بها من فصل ٦٠٠٠ جندى من البيادة المجرية أمام أعين الخيالة النمساوية الذين كانوا بعيدين عن إخوانهم المجريين بمسافة لا تزيد عن بضع فراسخ يحتاج قطعها إلى ربع ساعة من

---

(١) ليديات عالم من علماء أوربا فى القرن السابع عشر قام فى ظروف غير مناسبة واضطهده الحكام ومات فى سنة ١٦٤٦.

(٢) غاليلو الذى اخترع النظارات المعظمة المسماة باسمه اليوم حبس واهين لأنه أبى أن يغير معتقداته ومات فى السجن عام ١٦٤٣.

الزمان. وكثيراً ما كنت ألاحظ أن هذه الأرباع من الساعة الزمنية، هى التى تقرر الانتصار أو الخذلان فى موقعة من المواقع». وقال فكتور هوجو: «توجد بعض دقائق ولحظات، إذا نام فيها الإنسان مات»، «والفرصة، إن لم تنتهزها، تصير غصة».

ويدخل ضمن ضياع الفرصة، ضعف الإقدام كأن يكون الإنسان شديد الحرص، كثير الحذر، فى وقت تلزم فيه المجازفة وعدم المبالاة.

وهذا محمد على باشا مؤسس العائلة العلوية رفض مقابلة الوالى خسرو باشا لما طلبه فى ليلة من الليالى، لعلمه أن الوالى شعر بمساعيه وأراد القضاء عليه. فكان هذا الإقدام منه على مخالفة الوالى، هو السبب فى وصوله إلى ما وصل إليه، ولو أنه حذر العصيان، لما كان له اليوم هذا الاسم فى تاريخ العالم، ولما وصل به الإقدام إلى مقام الملوك بعد أن كان جنديًا صغيراً.

وربما فات قوم جل أمرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

تأثير الأخلاق فى النجاح:

ولدينا أيضًا نقطة أخرى لها تأثير عظيم فى مسألة النجاح فى الحياة، ونريد بها الأخلاق التى تمهد لصاحبها سبيل النجاح، وتعلى مركزه وتنيله مراده. ومن المقرر فى أذهان الناشئين، والمذاع على ألسنة الكثيرين من الناس، أن صفات الفضائل، كالصدق والأمانة والتواضع والحلم وكرم النفس، إلى غير ذلك، هى الوسائل التى تساعد على الرقى والفوز في معترك الحياة. ولكن إذا نظرنا يمينًا وشمالاً نجد أناساً وصلوا إلى درجات عالية فى «النجاح» بغير هذه الصفات، بل بأضدادها. وهذا «ماكس نوردو الألمانى» ينصح لطالب النجاح، بالتحايل والتظاهر الكاذب، وعدم التواضع، وعدم الصدق، فى رسالته التى كتبها تحت عنوان «كيف تفوز فى معترك الحياة» والتى يقول فيها: «كن أعظم الناس جدارة، وأتمهم كفاءة وكن قائمًا بأصعب الأعمال وأنفعها، ثم كن متواضعًا فإنك لا تجد مكافأة لك فى عملك»، وقال: «تواضع تقعد على الأبواب وتترك لغيرك صدور المجالس»، ويقول: «فاخر بنفسك ولو كذبًا وأطل فى ذكر كل ما فيه إعلاء شأنك، وألحق

باسمك أسمى الألقاب. وإذا ذمك منافسوك فاتخذ ذمهم برهانًا جديدًا على علوّ قدرك، وقل إنهم يحسدونك!! واعلم أن عقل الناس قاصر يؤثر فيهم الوهم فتراهم لا يقوون على معارضتك بل يحلونك المحل الذى رغبت فيه. فهم قوم يفهمون بالحرف الواحد كل ما قال لهم، ويعيدونه بسذاجة، وبدون تمييز بين الصدق والكذب، أو الجد والهزل» إلخ . . إلخ. والخلاصة إن استعمل الغش والخداع لتصل إلى مرادك، فإن ذلك هو السبيل إلى نيل المطامع والآمال.

ومن كلمات كبلنغ المأثورة قوله: «الرجل المستدير ينفذ من الثقب المستدير»، وقال أبو العلاء: «ألا إن دين العالمين رياء». وقال شاعر عصرى:

ضل سعى الشريف والخاسر المغـ ـبون من كان طاهر الأخلاق

ونجاح الكثيرين من الشرثارين والمداهنين والمنافقين والمراوغين، يرجع بالطبع إلى ضعف الطبيعة البشرية، وسلطة الوهم على عقول السذج من الناس، بل وعقول غيرهم، وبقدر ما تكون الأمة جاهلة واقعة تحت سلطة الأوهام والخرافات، بقدر ما يتمكن أولئك المراوغون المخادعون من الظهور والفوز بين ظهرانى هذه الأمة، فهم كاللصوص لا يسرقون إلا فى الظلام، ظلام الجهل؛ ولذلك ترى رجالا كثيرين من ذوى العقول الذكية والمعارف الواسعة (خصوصًا فى الشرق)، متروكين فى زوايا الإهمال، لأنهم لا يقدرون، بل يترفعون، عن الصفات والطرق والوسائل التى ينجح بها أولئك المداهنون المنافقون.

وللذين نجحوا أو ينجحون فى الحياة بهذه الوسائل الدنيئة، تأثير سيئ على أخلاق الناشئين الذين متى تحققوا أن أولئك القوم قد وصلوا إلى درجات الرفعة والثروة والشهرة بمثل تلك الأخلاق، قلدوهم فيها، أملا فى الوصول إلى ما وصلوا إليه، إن الأفراد الذين يترفعون عن هذه الصفات متى وجدوها مؤدية إلى نجاحهم لا يكادون يعدون على الأصابع. أين هم الأفراد الذين يعملون بقول شيشرون: «إذا كان كل الناس سافل الأخلاق منحطها، فكن أنت قائمًا بينهم عمودًا من التقى والفضيلة»؟ ولقد قال باكون: «التحايل فى الخلق كالمزيج من الحديد أو النحاس الذى تضيفه إلى المعدن الكريم، كالذهب أو الفضة، يساعد

على تقويته ويصلحه للعمل، ولكنه يقلل من قيمته». . فمن هم الذين يفكرون فى «القيمة» لأنفسهم، إذا اعترضت مصالحهم؟ وأين هم الذين يقدرون الناس «بقيمتهم الأصلية»؟ ونعود فنقول مع الرأى القائل بالاستعداد الفطرى الجسمانى: إن هناك أناسًا هكذا خلقوا، وهكذا فطروا بطبيعتهم الأولى، ولا غرابة أن يتخذوا تلك الأخلاق سلمًا للنجاح، فما أغرب هذا الوجود!.

ومن رأى فريق من «الوصوليين»، وضع الشىء فى محله، فإن لزمت وسائل التحايل للنجاح، فلتكن تلك الوسائل، وإن لزمت الفضائل، فلتكن الفضائل! حسبما يوجد الإنسان، وحيثما يقتضى الوسط الذى فيه يعيش، فيناسب نفسه بما يحيط به!

* * *

هذه هى، يا بنى، شئون الحياة وضروبها، فاختر لنفسك ما يحلو إن كنت طموحًا طامعًا متطلعًا للثروة والفوز والجاه، ولكنى أنصح لك بالرجوع فى كل شىء إلى عقلك، وقدّر ما تريده لمستقبلك وراحة فكرك، واعلم قبل كل شىء أن السعادة الحقة لا تتفق كثيراً مع التوسع والغلو فى المطامع، وعليك دائمًا بالمثابرة والجد والاجتهاد، واعلم بأنك موفق لما أنت صالح له. فقد ورد فى الحديث الشريف: «اعملوا فكل مُيَسّر لما خلق له».

«تم بحمد الله»

المحتويات

تقديم	٣
آراء نخبة من كبار أدباء العصر	٥
الرسالة الأولى	٢١
الرسالة الثانية	٢٥
الرسالة الثالثة	٢٩
الرسالة الرابعة التمرين العقلى	٣٣
الرسالة الخامسة التمرين البدنى	٣٩
الرسالة السادسة أهمية تعلم اللغات	٤٣
الرسالة السابعة تعلم اللغات	٤٧
الرسالة الثامنة اللغة العربية نحواً وآدابا	٥١
الرسالة التاسعة تعلم اللغة العربية وآدابها	٥٥
الرسالة العاشرة اللغة الإنجليزية نحواً وآدابا	٦٥
الرسالة الحادية عشر الترجمة	٨١
الرسالة الثانية عشر التاريخ	٩١
الرسالة الثالثة عشر العلوم الطبيعية	٩٩
الرسالة الرابعة عشر اختيار المهنة	١٠٧
الرسالة الخامسة عشر بعد المدرسة	١١٣
الرسالة السادسة عشر السلوك	١١٩
الرسالة السابعة عشر كسب ثقة الناس	١٢٣
الرسالة الثامنة عشر النجاح فى الحياة	١٢٧
المحتويات	١٤٤

دار المصرى للطباعة

ت: ٧٢٤١٧٨٦ - ٠١٢٢٧٤٩٤٧٥